روزا لكسمبورج
النظرية والممارسة

بقلم: سالي كامبيل

حزب العمال الاشتراكي البريطاني

وحدة الترجمة - مركز الدراسات الاشتراكية

١- من هي روزا لكسمبورج؟

تعد روزا لكسمبورج واحدةً من الشخصيات المثيرة للجدل، بل ومن الشخصيات التي أُسِيئ فهمها وتقديمها أيضًا. فمن خلال الاستماع للنقاشات التقليدية قد نستنتج أنها شخصيةٌ مسالمة رافضة للعنف، في الوقت نفسه الذي لُقبَت فيه "روزا الدموية"، وقد نستنتج أنها رمزٌ نسوي لكنها لم تكن مهتمةً بتحرير النساء بشكلٍ خاص، وقد يُستَنتَج أيضًا أنها معادية للينينية دافعت عن الإرهاب الأحمر، أو أنها مؤمنةٌ بالحتمية التاريخية وضعت كل ثقتها في النشاط الذاتي للعمال، وأنها ثوريةٌ صلبةٌ مُتفرِّغة للعمل الثوري كانت أيضًا إنسانة.

إن الأمر الوحيد الذي يتفق عليه الجميع هو أن حيويتها وطاقتها والتزامها بكل ما فعلته قد جعلوا منها إلهامًا للآخرين. فقد حقَّقَت في حياتها القصيرة القاسية قدرًا غير عادي من الإنجازات أمام كل الإجحاف الذي واجهته كيهوديةٍ بولنديةٍ وكامرأةٍ وكصاحبة جسدٍ ضئيلٍ ضعيف.

كانت لكسمبورج اشتراكيةً ثورية كرَّسَت كل حياتها لتحقيق التغيير الجذري، وذلك منذ المراهقة في بولندا في ثمانينيات القرن التاسع عشر وحتى مقتلها عن عمر السابعة والأربعين أثناء الثورة الألمانية عام ١٩١٩.

كانت لكسمبورج ناشطةً وخطيبةً ذات مكانةٍ عظيمة ومُعلِّمة ومُنَظِّرة. وقد اشتبكت مع النضالات الناشئة من حركة العمال المتنامية، هذا إلى جانب تحليلها لهذه النضالات. فقد كتبت العديد من النصوص الرئيسية والتي تشمل "الإضراب الشامل" و"إصلاح أم ثورة"، تلك النصوص التي طوَّرَت التراث الماركسي وفق الظروف الجديدة للقرن العشرين. كانت لكسمبورج ناقدةً ماركسية أصرَّت على مناقشة الإستراتيجية في الحراك ولم تفترض قط صحة رأي ما ببساطة لمجرد أن قائله أكبر سنًا أو أرفع قدرًا.

ناضلت لكسمبورج للدفاع عن تراث الاشتراكية من أسفل، ناظرةً إلى النشاط الذاتي للعمال كأساس للاشتراكية بدلًا من التطلُّع ببساطة للتمثيل في البرلمان. وأدركت قوة الإضرابات الشاملةً التي اندلعت في روسيا في ١٩٠٥، ووصفت كيف تجاوزت هذه الإضرابات الحواجز بين النضالات السياسية والاقتصادية.

وقفت، مع آخرين قلائل، ضد رهاب الحرب العالمية الأولى في الوقت الذي خضع فيه أغلب الاشتراكيين في ألمانيا وفي أوطانهم في أنحاء أوروبا للدعاوى القومية الداعمة للحرب. وقد سُجِنَت أغلب فترة الحرب لأمميَّتها المبدئية ضد هذه المذبحة التي وضعت العامل في مواجهة العامل، وقد وجدت لكسمبورج أملًا وإلهامًا في الثورة الروسية عام ١٩١٧.

في هذا الكتيب، أهدف إلى إزالة بعض الضباب المحيط بروزا لكسمبورج لإعادتها إلى موقعها كـ"روزا الحمراء" الثورية. وإن كان من الصعب إنصافها في هذا المساحة البسيطة للكتيب، لكنني آمل أن أُقدِّم جانبًا عن هذه المرأة وأفكارها وحياتها المندمجة مع النضال من أجل تحرُّر كل البشر.

٢- صبيةٌ مُتمَرِّدة ثم ثائرة

وُلِدَت روزا لكسمبورج في مارس عام ١٨٧١ في زاموسك، وهي بلدةٌ كبيرة ولكن متدنية زراعيًا في جنوب شرق بولندا. وفي ذلك الوقت لم يكن هناك دولةٌ بولندية مُوحَّدة؛ إذ كانت بولندا مُقسَّمة بين الإمبراطوريات الروسية والألمانية والنمساوية، وكانت زاموسك تحت حكم القيصر - ديكتاتور روسيا. وكانت لها ثقافةٌ يهودية مزدهرة، إذ كان أكثر من ثلث السكان من اليهود، لكن عائلة لكسمبورج كانت مندمجة بدرجةٍ عالية في أسلوب الحياة البولندي. إذ كان إلياش، والد روزا، تاجر أخشاب وكانت العائلة ميسورة إلى حد متوسط يتخلَّله بعض العناء.

كانت روزا الأصغر سنًا بين خمسة أبناء، وفي طفولتها انتقلت الأسرة إلى وارسو الواقعة أيضًا تحت حكم الإمبراطورية الروسية. وقد كان هذا الانتقال جزئيًا بناءً على رغبة الوالد إلياش في حصول أبنائه على أفضل فرصة ممكنة في التعليم. وسرعان ما عانت روزا مرضًا حادًا في مفصل الفخذ ألزمها الفراش لسنةٍ كاملة، ونتج عنه إعاقة دائمة لازمتها بعد ذلك. لكنها استغلَّت فترة ملازمتها للفراش جيدًا؛ فقد تعلَّمَت القراءة والكتابة وبدأت في كتابة أول رسائلها إلى والديها وأقاربها في سن الخامسة مُصمِّمَةً على تلقي ردود رسمية ممن تراسلهم.

لم يكن من السهل لليهود البولنديين أن يتلقوا تعليمًا جيدًا في ظل الحكم الإمبراطوري الروسي العنصري القمعي، فقد سُمِحَ لقليلٍ من البولنديين غير اليهود بالالتحاق بأول مدرسة ثانوية بوارسو والتي كانت محجوزةً لأبناء الموظفين العموميين الروس. وقد وُضِعَت حدودٌ صارمة على عدد اليهوديات المسموح لهن بالالتحاق بالمدرسة الثانوية الثانية للبنات بوارسو والتي التحقت بها روزا. وقد أُجبِرَ الطلاب على التحدُّث بالروسية فيما مُنِعَت اللغة البولندية حتى خارج الفصول. وهذا النوع من صبغ كل شيء بالروسية ولَّد في المقابل معارضةً بين طلاب المدرسة وكانت لكسمبورج في مقدمة صفوف هذه المعارضة. فقد تمرَّدَ الطلاب ضد مُدَرِّسيهم ونظَّموا المظاهرات وكثيرًا ما حدث ذلك تضامنًا مع نضالاتٍ أخرى تجري في المجتمع البولندي الأوسع.

كانت هناك روابط بين طلاب المدارس والمنظمات الثورية العاملة في وارسو التي تشكَّلت بشكلٍ كبير من شباب المثقفين. وكانت روزا نفسها في سن الخامسة عشر على اتصالٍ بتلك المجموعات، فيما كان نشاطها ملحوظًا. وعلى الرغم من تفوُّقها الدائم في صفوفها الدراسية، حُرِمَت من القلادة الذهبية للتفوُّق الأكاديمي بسبب سلوكها المُتَمَرِّد تجاه السلطات. قبل أن تُنهي عامها المدرسي الأخير كانت قد أصبحت عضوًا في حزب "بروليتاريا" وهو أول حزب اشتراكي في بولندا.

كان حزب "بروليتاريا" يستوحي إلهامه من الناردونيين؛ وهم مجموعةٌ ثوريةٌ روسية ناضلت من أجل تحرير الفلاحين من الأرستقراطية القيصرية من خلال القيام بأعمال الإرهاب والاغتيالات والتفجيرات، لكن المجموعة البولندية سعت إلى التحرُّك لما هو أبعد من الأفعال الفردية من خلال بناء قاعدة جماهيرية في أوساط حركة العمال المتنامية في المدن البولندية.

كانت بولندا في ذلك الوقت أكثر تقدُّمًا من روسيا في ما يخص الناحية الصناعية، ويرجع ذلك إلى قرب بولندا من الأسواق الغربية من ناحية، ومن ناحية أخرى إلى قلق قيصر روسيا من أن تنمو طبقة عاملة صناعية بالقرب من قلب حكمه.

نجح حزب "بروليتاريا" في تنظيم سلسلة من الإضرابات في أنحاء البلاد، شملت إضرابًا عامًا في ضواحي وارسو. قابلت السلطات هذه الإضرابات بقمعٍ هائل، فقد اعتُقِلَ العديد من أعضاء الحزب خلال العامين التاليين ودُمِّرت المنظمة فعليًا. وحينما بلغت لكسمبورج عامها الخامس عشر، كان أربعة من قيادات الحزب قد أُعدِموا شنقًا وعلنًا، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يُنفَّذ فيها حكم الإعدام علنًا منذ ٢٢ عامًا.

نجا عددٌ قليلٌ من خلايا المنظمة من هذا القمع، وانضمَّت لكسمبورج لإحدى تلك الخلايا الناجية، وقد كانت، مثل آخرين من أبناء جيلها، مُتأثِّرةً بالقمع اليومي الذي تمارسه السلطة القيصرية مما دفعها لتبني السياسة الثورية. لم تكن هناك حريةٌ سياسية حقيقية في الإمبراطورية، ولذلك لم يكن خيار النشاط من أجل الدفاع عن الديمقراطية يمثل الدرب السهل في الحياة.

شهدت السنوات القليلة التالية عودة نضالات العمال والنشاط الاشتراكي في بولندا، لكن ذلك جلب مخاطر جديدة للنشطاء. وقد أُجبِرَت لكسمبورج على اللجوء في ١٨٨٩ لتجنُّب الاعتقال، واختارت السفر إلى سويسرا التي كانت وجهةً للاشتراكيين البولنديين، حيث هُرِّبت عبر الحدود مختبئةً تحت قشٍ مُحمَّل على عربةٍ صغيرة، بعد أن أقنعت قسًّا محليًا برغبتها في التحوُّل للمسيحية وأنها مُضطَّرة للهروب من عائلتها القاسية كي تحقِّق ذلك.

٣- حرية بولندا

كانت روزا لكسمبورج قد قرأت بالفعل أعمال كارل ماركس وفردريك إنجلز منذ أتمت دراستها المدرسية والتحقت بالجامعة في زيورخ، وقد كان ذلك أمرًا استثنائيًا بالنسبة لامرأة في ذلك الوقت، ما مكَّنها من الدراسة المُكثَّفة لكل من النظرية الرأسمالية وناقديها. لكن منفاها لم يكن يعني انقطاعها عن الدراسة؛ ففي سويسرا المليئة بالمهاجرين السياسيين، قابلت لكسمبورج بعض الرموز الرئيسة للسياسة الثورية الروسية والبولندية، ولا سيما جورجي بليخانوف "أبو الماركسية الروسية"، كما قابلت ليو جوجيتشيس الثوري الليتواني المعروف كواحدٍ من أقدم وأنشط الاشتراكيين في فيلنا، وقد كانا في علاقة شخصية استمرت لعدة سنوات بعد ذلك، وعلاقة سياسية استمرت طوال حياة لكسمبورج.

حافظت لكسمبورج على انخراطها الوثيق في السياسة البولندية خلال الفترة التي قضتها في سويسرا، مثلها في ذلك مثل باقي المهاجرين. كما تنامَت ثقتها كمُنَظِّرة وكقائدة من خلال خوضها للنقاشات والمناظرات. في عام ١٨٩٢ جَمَعَ اليسار البولندي المحطم شتاته، ليؤسِّس الحزب الاشتراكي البولندي مستمدًا ذلك من موجةٍ متصاعدةٍ من النضالات العمالية، لكن برنامج الحزب كان خليطًا مضطربًا من القومية البولندية والماركسية، فيما لم تكن لكسمبورج ورفاقها على استعدادٍ للمساومة على أمميتهم الثورية، مجادلين بأن العمال الروس هم حلفاؤهم ضد قيصر روسيا الذي يقمع الجميع.

كان هذا بمثابة رفضٍ لدعم كارل ماركس للاستقلال البولندي، ذلك الموقف الذي طوَّره ماركس في أربعينيات القرن التاسع عشر وظلَّ مُصِرًّا عليه حتى وفاته في ١٨٨٣. في عصره، لم تكن هناك طبقةٌ عاملة روسية يمكن الحديث عنها، وبالتالي كان الانقسام الرئيسي يتمثَّل بين الأمة البولندية وقيصر روسيا. أما لكسمبورج فقد جادلت بأن الظروف قد تغيَّرَت مع تطوُّر الرأسمالية الصناعية في روسيا، والتحالف الآن أصبح ممكنًا بين العمال البولنديين والروس ضد الطبقتين الحليفتين للقيصرية، وهما الرأسمالية البولندية والرأسمالية الروسية الضعيفة.

اضطلعت لكسمبورج في يوليو ١٨٩٣ بدورٍ مركزيٍ في إصدار جريدة اشتراكية ثورية جديدة، هي "قضية العمال"، التي أسَّسَها الشباب المنفيون في سويسرا بقيادة لكسمبورج ورفاقها القدامى من حزب "بروليتاريا". وكان توقيت إصدار الجريدة مدروسًا بعناية، إذ كان أغسطس ١٨٩٣ هو الموعد المنتظر لعقد المؤتمر الثالث للاشتراكية الأممية، وهو المؤتمر الذي يضم كل الأحزاب الاشتراكية من جميع أنحاء العالم، وفيه تُناقش السياسات والإستراتيجيات والتكتيكات للحركة الأممية. وكانوا يأملون أن يمنحهم إصدار جريدة "قضية العمال" الشرعية تمثيلهم كمجموعةٍ في المؤتمر وكجزءٍ من الوفد البولندي، ومن ثَم يُمكنهم خوض الجدال ضد قومية الحزب الاشتراكي البولندي.

كانت مسألة الاستقلال مهمةً للحركة البولندية، فبولندا مُقسَّمة بين جيرانها المتنازعين. لكن في الوقت الذي ينبغي فيه على الاشتراكيين أن يدعموا حق تقرير المصير، جادلت روزا لكسمبورج بأن الحزب الاشتراكي البولندي كان يدعم "استعادة" بولندا من منظور رجعي. وجادلت كذلك بأن التركيز على دولةٍ بولندية مستقلة سيعيق النضال من أجل تحرير جميع الكتل المضطهدة تحت حكم القيصر. وقد حضرت لكسمبورج المؤتمر مُجادِلةً بأنه ينبغي السماح لها بتفويضها مُمَثِّلةً عن وجهة النظر تلك، والتي يتبناها بعض الاشتراكيين البولنديين وإن كانوا أقلية. في المقابل كان وفد الحزب الاشتراكي البولندي ضد السماح لها بالحديث؛ لكنها وقفت لعرض رأيها على كل حال.

يصف أحد الحضور ذلك المشهد، وهو القيادي الاشتراكي البلجيكي إيميل فان ديرفيلد قائلاً: "كانت روزا؛ ذات الثلاثة وعشرين عامًا حينئذٍ، غير معروفة إلى حدٍّ ما إلا لدى بعض الحلقات الاشتراكية في ألمانيا وبولندا، وقد وجد معارضوها صعوبةً هائلة في التماسك أمامها، ويمكنني الآن تذكُّرها وكيف انطلقت وسط بحرٍ من أعضاء الوفود معتليةً أحد الكراسي ليصبح صوتها أوضح للسامعين؛ صغيرة، رقيقة، وأنيقة في ثوبٍ صيفي يخفي بمهارة مواطن ضعفها الجسماني، مدافعةً عن قضيتها بهذه الجاذبية في عينيها وهذه الكلمات النارية التي مكنتها من الاستحواذ والفوز على الغالبية العظمى للمؤتمر".

لم تكن تلك الوفود صاحبة القرار للأسف، وإنما كان القرار للجنة منفصلة صوَّتت في ما بعد رافضةً أطروحة لكسمبورج بتسعة أصوات مقابل سبعة، فيما امتنع ثلاثة عن التصويت. يرجع ذلك جزئيًا إلى تأثير "بليخانوف" الذي لم يثق في ما طرحه الشباب الجدد القادمون من سويسرا - جوجيتشيس ولكسمبورج - وأيَّدَ في المقابل الحزب الاشتراكي البولندي.

غضبت لكسمبورج، لكنها واصَلَت البناء والنقاش داخل الحركة، وفي ١٨٩٤ كانت قد تولَّت تحرير جريدة "قضية العمال"، وأعلنت المجموعة نفسها باسم الحزب الاشتراكي الديمقراطي بالمملكة البولندية. وقبل حلول المؤتمر التالي للاشتراكية الأممية في ١٨٩٦، لم يكن هناك أي شك في حقها في الحضور والتحدُّث نيابةً عن الاشتراكيين البولنديين، على الرغم من تشويه أعضاء الحزب الاشتراكي البولندي لسمعتها ووصفها بالأنثى الهستيرية.

شقَّت لكسمبورج طريقها إلى مقدمة صفوف الاشتراكية البولندية وهي مازالت في العشرينيات من عمرها حينئذ. فقد كانت القوة الموجهة والمُعتَرَف بها في الحزب الاشتراكي الديمقراطي لمملكة بولندا، وقد صنعت لنفسها اسمًا في الحركة الأممية. وصارت بذلك جاهزةً للتحرُّك نحو أهم ميادين السياسة الثورية في عصرها: ألمانيا.

٤- قلب الحركة

كانت ألمانيا قد تطوَّرت متأخرًا إذا ما قورنت بالرأسمالية الأوروبية، لكن في الربع الأخير من القرن التاسع عشر بدأت في تعويض تأخُّرها ومنافسة فرنسا وبريطانيا، وكانت ديناميكية الرأسمالية تقوم بعملها، تلك الديناميكية التي كتب عنها ماركس وإنجلز قبل خمسين عامًا في البيان الشيوعي. إذ تحوَّلَت حياة الناس من العمل في الأرض إلى التجمع في جماعات للعمل في المصانع الكبرى والمدن المتنامية في ألمانيا. حينئذٍ كان للشيوعيين أن يتحدَّثوا حقًا عن الجماهير كجمهورهم.

كان الحزب الاشتراكي الديمقراطي في ألمانيا أهم حزبٍ للطبقة العاملة. فالقوانين المعادية للاشتراكية التي وضعها بسمارك في ١٨٧٨ كانت قد سقطت قبيل عام ١٨٩٠، وبالتالي كان الاشتراكيون في ألمانيا، على خلاف روسيا وبولندا، قادرين على التنظيم بانفتاح وشرعية بالرغم من بقاء بعض القيود، كأن يجلس أحد ضباط الشرطة على المنصة في التجمعات العامة للحزب الاشتراكي الديمقراطي ليتحقَّق من عدم مخالفة أي قانون، الأمر الذي كان يحدث غالبًا.

استغل الحزب الاشتراكي الديمقراطي تلك الفرصة ليضُخ مجهوده في التجنيد والدعاية الانتخابية. وبلغت عضوية الحزب في أواخر تسعينيات القرن التاسع عشر المليون عضوًا، وكان لدى الحزب ٤.٥ مليون ناخبًا و٩٠ جريدةً يومية في أنحاء البلاد إلى جانب العديد من النقابات العمالية والتعاونيات.

وصلت لكسمبورج إلى برلين في مايو ١٨٩٨، وكانت مُتزوَّجةً من صديق أحد أصدقائها، وهو جوستاف لوبيك، لتحصل على الجنسية الألمانية. وبرغم كونها امرأةً شابة تتمتَّع بدرجةٍ استثنائية من الثقة بالنفس، لم يكن سهلًا عليها الاندماج في هذه العاصمة المثيرة والمشحونة. وما إن وصلت حتى كتبت رسالةً إلى ليو جوجيتش تقول فيها: "أشعر أني وصلت هنا كغريبةٍ تمامًا ووحيدةٍ لأغزو برلين، وبعد إلقائي نظرة عليها أشعر بالقلق من قوتها الباردة ولامبالتها تجاهي". لم يدم هذا الشعور بالاختلاف طويلًا، فقد كان عام ١٨٩٨ عامًا انتخابيًّا، قدَّمت فيه لكسمبورج خدماتها للحزب الاشتراكي الديمقراطي كعضوةٍ بحملات مناطق بروسيا الشرقية التي تتضمَّن العديد من العمال المُتحدِّثين بالبولندية. قُبِلَ عرضها وانطلقت بالفعل في جولةٍ من الندوات التي حقَّقَت نجاحًا كبيرًا. وقد امتلكت وضوحًا نظريًا تامًا وكانت تأخذ الجماهير على محمل الجد، ليس فقط عبر تحفيزهم عاطفيًا، وإنما عبر تقديم الحجج الواضحة أيضًا. وهكذا عادت لكسمبورج إلى برلين مستعيدةً ثقتها بنفسها حاملةً سمعة بارزة.

اكتسبت لكسمبورج أصدقاء سياسيين مهمين في الحزب الاشتراكي الديمقراطي كان منهم كارل كاوتسكي، الذي كان يُعتَبَر وريثًا لتراث ماركس وإنجلز. وقد أصبحت صديقةً مُقرَّبةً لزوجته لويز. كما تقاربت مع كلارا زيتكن، المُنخرطة في الحزب منذ أيام ما قبل عمله الشرعي، والتي كانت محررةً لجريدة المرأة الاشتراكية "المساواة".

وخلال أشهرٍ قليلة من وصولها، كانت لكسمبورج بصدد الدخول في جدالٍ مع أحد قيادات الحزب النظرية دفاعًا عن الأطروحة المركزية لماركس، والتي تقول بأن تحرير الطبقة العاملة يجب أن يكون بفعل الطبقة العاملة نفسها.

٥- إصلاح أم ثورة؟

مع أن الحزب الاشتراكي الديمقراطي كان يُعتَبَر حزبًا ماركسيًا، نمى شرخٌ في الممارسة خاصةً بين أولئك الذين استمروا في الجدال بأن تحقيق الاشتراكية يتطلَّب ثورةً، وأولئك ممن رأوا على نحوٍ متزايد إمكانية إصلاح الدولة القائمة من خلال البرلمان بدلًا من إسقاطها. ويجدر هنا الإشارة أن هؤلاء "الإصلاحيين" كانوا ملتزمين فعليًا بإحداث تغيير جذري في المجتمع وتحسين معيشة العمال، على العكس من إصلاحيي الأحزاب العمالية الحالية الذين يتقبَّلون فكرة أنه "لا يوجد بديل" عن الخصخصة والهجوم على المكتسبات الاجتماعية للعمال.

كان لذلك الحزب مُنَظِّريه الكبار، كإدوارد برنشتين الذي مثَّلَ أحد المُنَظِّرين الأساسيين للحزب الاشتراكي الديمقراطي، والذي أعد "مراجعةً" للماركسية الثورية عام ١٨٩٩ في كتابه "الشروط المسبقة للاشتراكية ومهام الاشتراكية الديمقراطية" والمعروف في بريطانيا تحت عنوان "الاشتراكية التطورية"، والذي أوضح فيه أطروحته الإصلاحية.

بدأ برنشتين بادعائه أن الرأسمالية قد تغيَّرَت منذ عصر ماركس، أي منذ جيلٍ واحد مضى. وكلما تقدَّم الزمن بالرأسمالية، كلما زاد استقرارها إذ تتكيَّف أوضاعها. فالاحتكارات والنظام الائتماني يمكنهما تنظيم الرأسمالية وتخليصها من الركود والأزمات التي عرَّفها ماركس في كلاسيكيته "رأس المال". وبالتالي، في وجهة نظره، تخف حدة تناقضات الرأسمالية بمرورِ الوقت، لا أن تتعمَّق. إذن فالرأسمالية ستستمر في النمو، ومهمة الاشتراكيين هي النضال من أجل حصةٍ أكبر من الثروة لصالح العمال، وبالتدريج يتحوَّل نظام اللامساواة الرأسمالي إلى نظامِ مساواةٍ اشتراكي.

أما روزا لكسمبورج، فقد جادلت بالعكس من ذلك في أحد أشهر أعمالها حتى الآن وهو كتاب "إصلاح أم ثورة". فبينما قد تمر فتراتٌ من الاستقرار، مثلما كان في ذلك الوقت منذ عام ١٨٧٣، فإن وجود وحدات أكبر من رأس المال إلى جانب صعود السيطرة العسكرية للقوى الكبرى يعني مزيدًا من التناقضات والصراعات داخل النظام، وقد كتبت لكسمبورج: "بالنسبة له (برنشتين)، فإن الأزمات هي ببساطة أعطال وارتباكات الماكينة الاقتصادية، وبإيقاف هذه الارتباكات يعتقد برنشتين أن الماكينة قد تعمل جيدًا. لكن الحقيقة هي أن تلك الأزمات ليست أعطالًا بالمعنى التقليدي للكلمة. إنما هي "ارتباكات" لا يُطوَّر دونها الاقتصاد الرأسمالي؛ أي أن الأزمات هي ظاهرة عضوية لا يمكن فصلها عن الاقتصاد الرأسمالي".

إن الأزمة هي مرض الرأسمالية المزمن، وذلك لكون الرأسمالية نظامًا مبنيًّا على المنافسة والتوسُّع الذي لا هوادة فيه، ويكون العمال والفقراء في ظلِّ هذا النظام هم من يضطرون لتحمُّلِ تكلفة هذه الأزمات عند حدوثها، وبالتالي فإن هذا النظام لا يمكن ترويضه بل يجب إسقاطه.

رأى ماركس أن الرأسمالية تجعل من النضال من أجل الاشتراكية احتمالًا اقتصاديًا، بل وضرورة، فالوسائل اللازمة لتوفير مستوى لائق من المعيشة للجميع موجودة الآن، لكن الرأسمالية لم تستطع تحقيق ذلك حيث إن الفوضى الرأسمالية لا تجلب التقدُّم وإنما تجلب الدمار. كما أن نمو الرأسمالية يعني الاستعمار وتدمير الثقافات وتنامي خطر الحرب، إذن فالاشتراكية ليست فقط مجرد فكرة لطيفة بل إنها ضرورة للإنسانية.

تقتبس لكسمبورج كلمات برنشتين التي تنضح بالحسرة على هذه المقاربة العلمية: "لماذا تُقَدَّم الاشتراكية كنتيجةٍ للإكراه الاقتصادي؟ لماذا يُمتَهَن فهم الإنسان لإرادته وشعوره بالعدالة؟"، وتجيب عن هذا السؤال قائلةً: "إن التوزيع فائق العدالة عند برنشتين إنما يتحقَّق بفضل الإرادة الحرة للإنسان، أي أن فعل إرادته لا يأتي من الضرورة الاقتصادية، بما أن الإرادة نفسها مجرد أداة، بل يأتي من مفهوم العدالة لدى الإنسان، أي من فكرة العدالة لدى الإنسان. يرجعنا ذلك مباشرةً إلى مبدأ العدالة، إلى حصان الحرب العجوز الذى عليه هدهد الإصلاحيون على مدى عصور لعدم وجود وسيلة نقل تاريخية أكثر أمانة. إننا نعود إلى المأسوف عليها "روسينانت" التي امتطى صهوتها كل دون كيشوتات التاريخ وخبوا بها نحو الإصلاح العظيم للأرض، عائدين دومًا وقد اسودَّت منهم الوجوه".

إن ما تقصده لكسمبورج هنا هو أن الإرادة قد وجدت دومًا منذ وجود سبارتاكوس وحتى "مؤيدي المساواة" (في القرن السابع عشر)، لكن لم توجد قبل الآن الإمكانية الاقتصادية لتوزيعٍ عادلٍ للثروة. وفي حين جعل ماركس من الاشتراكية علمًا، فقد برنشتين لإعادتها مرة أخرى كهدفٍ طوباوي مجرد.

كانت النقابات العمالية والتعاونيات في ذلك الوقت في ألمانيا تُحسِّن من مستوى معيشة الناس العاديين، كما أن التوسع في حق الاقتراع سمح لمزيدٍ من العمال بالتمثيل السياسي لتقديم قوانين في صالحهم. وبالنسبة لبرنشتين، كان ذلك يعني أن الإصلاح التدريجي للرأسمالية ممكنٌ، في حين رأت لكسمبورج أن نضال النقابات العمالية والصراع من أجل الإصلاحات أمرٌ حاسمٌ، لكنه ليس حلًا في حد ذاته: "إن الشروط الموضوعية للمجتمع الرأسمالي تُحوِّل الوظيفتين الاقتصاديتين للنقابات العمالية إلى نوعٍ عملٍ "سيزيفي"، ومع ذلك فلا غنى عنه. وكنتيجةٍ لنشاط النقابة العمالية، ينجح العامل في الحصول لنفسه على أجرٍ يوافق ظروف سوق العمل، وكنتيجةٍ لنشاط النقابة العمالية يُطبَّق قانون الرأسمالي للأجر".

إذن فالنقابات العمالية يمكنها رفع الأجور من خلال إعادة التفاوض على شروط الاستغلال وهذا أمرٌ هام، لكنه لا يقضي على الاستغلال تمامًا. ويُعتَبَر النضال من أجل الإصلاحات ضرورةً للنضال من أجل القضاء على النظام، فكما أشار الاشتراكي الثوري البريطاني توني كليف، فقد كوَّن سيزيف عضلاتٍ قوية للغاية لكن القضاء على النظام أمرٌ آخر.

اعتقد برنشتين أن الاشتراكيين يمكنهم الاعتماد على استخدام الدولة لتحقيق التغيير، وكأن الدولة أداةً حيادية يستخدمها أيٌّ من يكن في الحكومة. وقد جادلت لكسمبورج بأن الدولة ليست محايدةً وإنما طبقية تُمثِّل وتعمل لصالح الطبقة الحاكمة. سلَّطَت الضوءَ على طبيعة الدولة واحتكارها للعنف في الفقرة التالية من مناظرتها لإيميل فاندرفيلد:

> "ما هي الوظيفة الفعلية للشرعية البرجوازية؟ إذا اختُطِفَ مواطنٌ حر على يد آخر وحبسه في مكانٍ مغلق غير مريح لمدة ما، فإن الجميع يفهم هذا الفعل كفعلٍ عنيف ارتُكِبَ. ورغم ذلك، فإن جرت هذه العملية طبقًا لهذا الكتاب المعروف بقانون العقوبات وكان مكان الحبس في هذه المسألة هو "السجن البروسي الملكي"، فإن الفعل كله يتحوَّل إلى إجراءٍ من إجراءات الشرعية السلمية.
>
> وإذا أُجبِرَ شخصٌ ما، ضد رغبته من جانبِ شخصٍ آخر، على قتل أقرانه، فإن هذا الفعل بوضوحٍ هو عمل من أعمال العنف. أما إذا جرت نفس العملية تحت المسمى الخدمة العسكريَّة، فإن المواطن الصالح يغتر بذلك معتقدًا أنه يتنفَّس الشرعية السلمية التامة.

وبالمثل، إذا حُرِمَ شخصٌ ما من ملكيته أو مكتسباته خلافًا لرغباته، فلا شك أن ذلك عنفٌ. لكن إذا جرت نفس العملية تحت مسمى فرض الضرائب غير المباشرة، فإنها حينئذ تعتبر ممارسة حقوق الشرعية.

بمعنى آخر، فإن ما يُقدَّم لنا تحت مسمى شرعية برجوازية هو لا شيء سوى عنف الطبقة الحاكمة، عنف كُرِّسَ كقاعدةٍ إلزامية منذ البداية. وبمجرد أن تُقر أعمال العنف الفردية بهذه الطريقة كقاعدةٍ إلزامية، فإن هذه العملية يمكن أن تنعكس في ذهن رجل القانون البرجوازي (و في ذهن الاشتراكيين الانتهازيين بدرجةٍ مماثلة)، لكنها ليست كما هي وإنما تنعكس بصورةٍ مقلوبة: أي أن النظام الشرعي يظهر كخلق مستقل من "العدالة" المجردة، ويظهر عنف الدولة كمجرد نتيجةٍ وكعقوبةٍ قانونيةٍ بسيطة. أما في الواقع، فالحقيقة هي العكس تمامًا. الشرعية البرجوازية (العملية البرلمانية كعملية تطور) هي في حد ذاتها مجرد صيغة اجتماعية جزئية للعنف السياسي البرجوازي؛ أي أنه عنفٌ نَبَتَ من القاعدة الاقتصادية".

إن القانون هو أداةٌ للرأسمالية، ولا يمكن للقانون أن يكون أداةً للتحوُّل الجذري للعالم. وبالمثل فإن القانون لا يمنع العنف بل إن القانون يُبنى ويبقى على العنف، ومن الوهم أن تعتقد إمكانية استخدام القانون لشرعنة الرأسمالية بشكل سلمي.

إذن فجدال لكسمبورج لبرنشتين ليس لدفاعه عن الإصلاحات، فهذا هو العمل اليومي الأساسي للاشتراكيين، وإنما يرجع هذا الجدال إلى رؤية برنشتين لهذا الطريق السلمي التدريجي نحو الاشتراكية ومعارضته للمسار العنيف للثورة، وتوضح لكسمبورج ذلك حين تقول: "الإصلاح والثورة ليسا منهجين للتطوُّر التاريخي يمكن اختيارهما بسرور من مائدة التاريخ مثلما يختار المرء طعاما ساخنًا أو باردًا".

تقول أيضًا:

"إن من المخالفة للتاريخ أن يُقدَّم العمل من أجل الإصلاحات كثورةٍ طويلة الأمد، وتقديم الثورة كسلسلةٍ مُكثَّفَة من الإصلاحات؛ فالتحوُّل الاجتماعي والإصلاح التشريعي لا يختلفان طبقًا للمدة الزمنية لكليهما، وإنما يختلفان طبقا لمحتويهما. وهذا يُفسِّر كيف أن هؤلاء، ممن يعلنون أنفسهم مؤيدين لأسلوب الإصلاح التشريعي بدلًا من، ومقابل، انتزاع السلطة السياسية والثورة الاجتماعية، هم لا يختارون طريقًا أهدأ وأبطأ لنفس الهدف، وإنما يختارون هدفًا مختلفًا؛ فحينئذٍ يصبح برنامجنا هو إصلاح الرأسمالية وليس تحقيق الاشتراكية".

يضع برنشتين النضال من أجل الإصلاحات في مواجهة النضال من أجل الثورة، فيما تصر لكسمبورج على وحدتهما، فالنضال من أجل الإصلاح هو الطريق نحو الثورة.

نجحت لكسمبورج في كسب مؤتمر الحزب الاشتراكي الديمقراطي على أطروحتها، ليلتزم الحزب ببرنامج ماركسي ثوري. وترجع هذا النجاح بدرجةٍ كبيرة لدعم كاوتسكي لما طرحته لكسمبورج. ولقد مَنَحَ نجاح كتاب "إصلاح أم ثورة" لكسمبورج دفعةً في الحزب الاشتراكي الديمقراطي حتى أنها كسبت خصومها، ومنهم خصومها من بيروقراطيي النقابات الذين كان قد

أساءهم تعبيرها عن "عمل سيزيف" تعليقًا على العمل النقابي، فقد رأوه تحديًا لموقفهم حيث يُسلِّط هذا التعبير الضوء على حدود النقابوية.

أمضت لكسمبورج السنوات القليلة التالية في مناظراتٍ شاقة مع مختلف أقسام الحزب شاحذةً مهاراتها في النقاش. لكن ضمان التزام الحزب بالبرنامج الثوري الصحيح لم يكن مُؤكَّدًا؛ فعمليا كان الحزب يتجه نحو إستراتيجيةٍ إصلاحية.

٦- متعة السجال

لمعت روزا لكسمبورج في السجالات الحية، ولم تكن تتراجع قط إذا أحسَّت بأهمية النقاش. في عام ١٨٩٩ هاجمت هيئة تحرير جريدة الحزب الرئيسية "إلى الأمام" والذي أحسَّت بضعف عزيمتها وإخفاقها في تبني خطًا ثوريًّا واضحًا. وقد كتبت في الصحيفة الأصغر للحزب "أهل ليبزيج": "هناك نوعان من الكائنات الحية؛ أولئك ممن لديهم عمود فقري وبالتالي يمشون وأحيانًا يجرون، وآخرون لا فقاريون ممن يزحفون أو يعلقون".

في يوليو ١٩٠٤، حُكِمَ على لكسمبورج بالسجن ثلاثة أشهر لإهانتها القيصر، ففي خطابٍ لها أثناء الحملة الانتخابية لعام ١٩٠٣ قالت عنه: "أي شخص يتحدَّث عن الحياة الجيدة والآمنة للعمال الألمان هو شخصٌ لا يعلم أي شيء عن الحقيقة". وقد أُطلِقَ سراحها مبكرًا كجزءٍ من العفو العام على خلفية وفاة ملك ساكسونيا، الأمر الذي أغضب لكسمبورج بشدة.

حين كانت لكسمبورج في السجن في تسفيكاو، كتبت إلى كارل كاوتسكي تُشجِّعه على مواصلة معاركهم داخل الحزب بعدما نجحا في تمرير بند مناهض في مؤتمر الأممية في أمستردام. كتبت:

> "إذن فأنت لديك معارك أخرى لتخوضها، وهذا ما يسعدني جدًا لأنه يُوضِّح أن هؤلاء الناس الصغار يشعرون بقسوة الصدمة التي سبَّبَها لهم نصرنا في أمستردام... وبالتالي يزعجني قولك بأنك تغبطني على وجودي في الزنزانة! ولا شك عندي حول أنك ستُسدِّد لخصومنا ضربةً جيدة على ما يسمونه رؤوسهم، لكنك يجب أن تفعل ذلك باستمتاع وبهجة، وليس كعبءٍ زائد لأن الجمهور يشعر دائمًا بمزاج المقاتلين، وإذا استمتعت بالقتال، فهذا يضفي نغمةً أزهى للجدال ويمنحك أفضليةً معنوية. وأنا أكتب لك كل هذا ليس تحفيزًا لك وإنما لجعلك تشعر بمتعة السجال".

في نفس الفترة، اشتبكت لكسمبورج في جدالٍ مع الثوري الروسي لينين حول التنظيم والديمقراطية الحزبية. وفي ١٩٠٢ أصدر لينين كراسه الشهير "ما العمل؟"، وفيه جادل لينين بأن على الاشتراكيين في روسيا أن يزيدوا من عزيمتهم، فبينما كانت الجماهير الروسية تُنظِّم الإضرابات والمظاهرات، كان اليسار يتذيَّل الجماهير ببساطة من خلال الحديث فقط عن المطالب الاقتصادية الفورية. وبدلًا من ذلك يجب على الاشتراكيين أن يكونوا شديدي التنظيم والتسييس، وعليهم دراسة النظرية الاشتراكية ونقل تلك الأفكار إلى داخل الحركة العمالية. الحزب يجب أن يتألَّف أساسًا من الثوريين المحترفين العاملين تحت توجيه القيادة ومسؤولين أمامها. كما يجب أن تصدر جريدة الحزب مركزيًا لتحمل النقاشات المطروحة للتطبيق على الحركة.

تسبَّبَ ما طرحه لينين في انقسام في الحركة الاشتراكية الروسية في ١٩٠٣ بين البلاشفة، الذين تزعَّمَهم لينين، والمناشفة الذين أرادوا بناءً حزبيًا أوسع وأكثر مرونة. وفي ظل الظروف غير القانونية التي واجهها الاشتراكيون في روسيا، جادل لينين بأن التنظيم الواسع الذي يقترحه المناشفة، فضلًا عن جعله الحزب متاحًا للجماهير، فإنه سيجعل الثوريين أكثر إتاحة وتعرضًا لقبضة الشرطة. وبعد هذا الانقسام، كتب لينين كتيب "خطوة للأمام وخطوتان للخلف" مُؤكِّدًا فيه على ضرورة التنظيم المركزي.

تفاعلت لكسمبورج مع ما طرحه لينين في مقالاتها بالجريدة الروسية "إيسكرا" (وتعني "الشرارة" باللغة العربية) والجريدة النظرية الألمانية "نيو زايت" (العصر الجديد) في عام ١٩٠٤. وقد اتفَقَت مع لينين في أهمية الحزب المركزي المنضبط في طليعة حركة الطبقة العاملة، لكنها رأت ان المركزية مُفرِطة في طرح لينين. بالنسبة للكسمبورج، كانت طاقة وإبداع الحركة الحية هي ما دفع الحركة نفسها للأمام. أما مركزية لينين الفائقة فهي تُمثِّل خطرًا، إذ تقوم المركزية بدفن هذه الطاقة تحت الانضباط المُقيِّد للحزب. وقد أوضحت ذلك في قولها: "إن الأخطاء التي ترتكبها حركةٌ عماليةٌ ثوريةٌ أصيلة أكبر أثرًا وأجدر بالاهتمام تاريخيًا من عصمة أفضل لجنة مركزية".

لم يكن ذلك جدالًا مع لينين فقط، فقد كانت لكسمبورج تُوجِّه تعليقاتها لقيادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي أيضًا، أولئك الذين كانوا يقاومون اأي أفكار أو أفعال تأتي من الحركة.

ضُخِّمَت الخلافات بين لكسمبورج ولينين، فكان كلٌّ منهما يحترم الآخر للغاية واتفقا على أساسيات السياسة الثورية. وقد رجع جزءٌ من خلافهما حول التنظيم إلى الظروف المختلفة في ألمانيا وروسيا، ففي ألمانيا كان مستوى النضال أقل نسبيًا لكن التنظيم كان قويًا، بينما في روسيا كانت هناك موجاتٌ عاتية من الإضرابات لكن ندر وجود أي تنظيم على الإطلاق. وقد كانت لكسمبورج نفسها معتادةً على التنظيم المركزي، فقد كان ذلك الأسلوب التنظيمي للحزب الاشتراكي الديمقراطي للمملكة البولندية (والذي كانت لكسمبورج مُنَظِّرَته الرئيسية حتى نهاية حياتها). وذلك في ظروف اللاشرعية مثلما كان الحال في روسيا.

إذا كانت لكسمبورج لامعةً في السجال، فلينين كان يعيشه ويتنفَّسه. ففي الفترة بين ١٩٠٢ و١٩٠٤ شنَّ لينين جدالاته في الحركة الروسية و"لوى العصي" (أي أنه ضخَّمَ من أهمية بعض النقاط من أجل إقناع رفاقه بالإستراتيجية الجديدة) بقدر ما هو ضروري ليعيد الحركة لمسارها الصحيح. وبعد عامٍ واحد، اندلعت ثورةٌ في روسيا وفتح لينين الحزب لمزيدٍ من العضوية مُغيِّرًا هيكلته. لكن الطبيعة المركزية للمنظمة ظلَّت كما هي، وأثبتت عظيم قيمتها في النضالات اللاحقة.

تمكَّنَت مجموعة الثوريين المخضرمين الذين نشأوا مع لينين خلال العقد التالي من القيادة التكتيكية الحاسمة خلال الثورة الروسية في عام ١٩١٧ بشكل لم يستطع الحزب الشيوعي الألماني لروزا لكسمبورج، الذي نشأ فقط في خضم ثورة ١٩١٨، الوصول إليه.

رغم ذلك، كان النقاش بين لينين ولكسمبورج ذا قيمةٍ كبيرة. فقد سلَّطَ الضوءَ على حقيقةٍ لا يمكن المبالغة في تقديرها، وهي أن الطبقة العاملة نفسها، وليس الحزب الثوري، هي من تقوم بالثورة. وقد أخطأت لكسمبورج في مبالغتها في تقدير قدرة الحركة بنفسها على إنتاج القيادة اللازمة التي تتقدَّم الثورة. وستعود مسألة العلاقة بين الحزب والطبقة للظهور خلال عامٍ واحد عندما احتل النضال العفوي للجماهير وضعًا مركزيًا على مسرح الأحداث.

٧- ١٩٠٥: الثورة الروسية الأولى

ظلَّ المنطق السائد لفترةٍ طويلة في الحركة الاشتراكية أن روسيا المتأخرة اقتصاديًا وسياسيًا ستكون في مؤخرة مركب الثورة، لكن أحداث عام ١٩٠٥ غيَّرَت ذلك وحوَّلَت كل أوروبا عمليًا.

في يناير ١٩٠٥، انطلقت مظاهرةٌ سلمية في سان بطرسبورج، عاصمة الإمبراطورية الروسية، بقيادة قسٍّ هو الأب جابون. توجَّه نحو ١٤٠ ألف متظاهر نحو قصر الشتاء لتسليم عريضة للقيصر يطالبون فيها بجمعيةٍ تأسيسية مُنتَخَبَة باقتراعٍ عام سريٍّ ونزيه. أما باقي المطالب فكانت بخصوص التعليم العام المجاني وحرية الصحافة والتَّعبير، علاوة على المطالبة بفرض ضرائب تصاعدية ويوم عمل من ثمان ساعات فقط. في المقابل، أُمِرَت قوات القيصر بإطلاق النار على المظاهرة لتقتل المئات في ما عُرِفَ "الأحد الدامي".

كانت هذه المذبحة إيذانًا فوريًا بفترةٍ جديدةٍ من النضال في روسيا من إضرابات وانتفاضات للفلاحين، مبشرةً ببدء الثورة الروسية الأولى. وظنَّ أغلب الماركسيين أن هذه هي ثورة روسيا البرجوازية الديمقراطية المتأخرة على غرار ما حدث في فرنسا عندما قامت الجمهورية الفرنسية في ١٧٨٩. أما لكسمبورج، فقد جادلت بأن الأمر أكبر من ذلك، وفي مقالها "الثورة الروسية" في ٢٨ يناير ١٩٠٥ كتبت: "إن من الخطأ التام أن نرى في ما يحدث في الثورة الروسية ببساطة على أنه تكرارٌ لما جرى تاريخيًا في فرنسا وألمانيا منذ زمنٍ بعيدٍ من ديمقراطية اجتماعية غرب أوروبية". ويرجع رأي لكسمبورج تحديدًا إلى الفترة الزمنية المنقضية وللطبيعة الطبقية المُحدَّدة لروسيا مما يجعل من هذه الثورة عمليةً جديدةً مُتفرِّدة.

إن الثورة الفرنسية في عام ١٧٨٩ قادتها البرجوازية الصغيرة الليبرالية، وهي الشريحة المُثَقَّفة من الطبقة الرأسمالية الجديدة، وقد نجحوا في توحيد الرأسماليين والعمال والفلاحين. أما الثورة الروسية في ١٩٠٥، فقد كانت شديدة الاختلاف، إذ قاد هذه الثورة الديمقراطية العمال ومُثَقَّفوهم، وهم الاشتراكيون الديمقراطيون (الماركسيون). وقد كتبت لكسمبورج في ذلك: "تملك الثورة الروسية الطابع الطبقي البروليتاري المعلن الأبرز بين كل الثورات حتى الآن".

انتشرت الثورة بعد أسبوعين من يوم الأحد الدامي في كل مدن الإمبراطورية الروسية من بولندا إلى أوكرانيا إلى دول البلطيق. ونادت لكسمبورج بضرورة الحفاظ على الحالة الثورية على الدوام وقد كانت القيادة هي العامل الحاسم، فمن كان له القدرة على استنهاض هِمَم وتعليم وتشجيع الطبقة لتعميق النضال أكثر؟ وبالنسبة للكسمبورج كانت الإجابة واضحة: "يمكن إنجاز هذه المهمة في روسيا فقط من خلال الاشتراكية الديمقراطية، تلك التي تسمو فوق كلِّ لحظة نضالية مُحدَّدة، إذ لها هدفٌ نهائيٌّ يتجاوز كل اللحظات الاستثنائية، ولهذا السبب لا ترى الاشتراكية الديمقراطية نهايةً للعالم في النجاح الفوري أو الإخفاق الفوري للحظةٍ بعينها، كما أنها تهدف لصالح الطبقة العاملة فلا تنظر للطبقة العاملة كوسيلةٍ تؤدي لتحقيق الحرية السياسية، بل تنظر بدلًا من ذلك للحرية السياسية كوسيلةٍ تؤدي لتحرير الطبقة العاملة".

بدأت الثورة في التطوُّر بالفعل بالأسلوب الذي تمَّنَته لكسمبورج، فقد اتسمت الإضرابات بالجماهيرية بعد أن شارك بها آلاف العمال متسائلين حول من يدير المجتمع. وكذلك انتشرت الإضرابات السياسية وتحوَّلَت إلى إضراباتٍ اقتصادية حول الأجور وظروف العمل، الأمر الذي صبَّ بدوره في إضراباتٍ سياسية أكبر.

وبذلك لم تعد روسيا في مؤخرة الحركة، وإنما في مقدمة النشاط العمالي. وفي ديسمبر ١٩٠٥، انتقلت روزا لكسمبورج هاربةً إلى بولندا الثورية لتشهد النضال الثوري بشكلٍ مباشر. وما أن بلغت وارسو حتى بدأت العمل على الفور، إذ كافحت لإصدار الصحف لتتدخَّل في النضال وتُوجِّهه. وقد تحقَّقت بعض الإصلاحات في الخريف بما في ذلك التنازل الذي قدَّمه القيصر بتأسيس برلمان (مجلس الدوما) في اقتراعٍ محدود. وفي ديسمبر، بلغت الثورة ذروتها بانتفاضةٍ عمالية استمرت ثمانية أيام في موسكو، لكن الانتفاضة قد عُزِلَت وغلبتها قوات القيصر فتراجعت الموجة الثورية.

في خلال ثلاثة أشهر بعد وصولها وارسو، أُلقِيَ القبض على لكسمبورج لتُسجَن لمدة أربعة أشهر، وقد نُفِيَت بعد إطلاق سراحها لتذهب إلى فنلندا حيث عزمت على تحليل العام الأكثر إثارةً في حياتها.

٨- تعلُّم دروس الإضراب الجماهيري

ألهمت أحداث روسيا عمال ألمانيا خوض معاركهم، وخلال السنوات من ١٩٠٠ وحتى ١٩٠٤، شارك ٤٧٧,٥١٦ عاملًا في إضراباتٍ واعتصاماتٍ في ألمانيا. وفي ١٩٠٥ وحدها شارك ٥٠٧,٩٦٤ عاملًا في الإضرابات بمُعدَّل يفوق أيَّ عامٍ في الفترة من ١٨٤٨ حتى ١٩١٧.

في يناير ١٩٠٥، دخل عمال مناجم الفحم في منطقة الرور الصناعية إضرابًا بشأن ظروف عملهم المُروِّعة، لكن هذا الإضراب كان مختلفًا؛ إذ انتشر كالنار في الهشيم منتقلًا من العمال المنظمين إلى غيرهم من العمال غير المنظمين مُتجنِّبًا محاولات القيادات العمالية لتقييده داخل حدود معينة. وقد انفض الإضراب بعد شهر، لكنه خلَّف وراءه مطلبًا سياسيًا مهمًا لجعل السلطات المحلية تتدخَّل في تحسين ظروف العمل. وهكذا انتقل الإضراب من مطالب اقتصادية مُوجَّهة إلى أرباب العمل إلى مطالب سياسية مُوجَّهة للممثلين البرلمانيين، بل أكثر من ذلك فقد كانت قيادة هذا الإضراب من العمال أنفسهم وبالرغم من قياداتهم - أي أن المرارة العفوية كانت هي القوة المحركة. وكما قالت لكسمبورج، كان أمام الحزب والنقابات إما "وضع نفسها في مقدمة الطوفان وإما الانجراف جانبًا بفعل الطوفان نفسه".

كانت الفجوة تتسع بين الجانبين؛ الأول هو بيروقراطية النقابات العمالية الإصلاحية التي أزعجها تكلفة كل تلك الإضرابات وما إذا كان ممكنًا التحكم فيها، والجانب الثاني، والمُؤلَّف من أعضاء تلك النقابات فكان يتطلَّع بشكلٍ متزايد لاتباع سياسات راديكالية. وفي الوقت نفسه، مال الحزب الاشتراكي الديمقراطي إلى فصل النضال إلى ركيزتين، الأولى النقابات (أي الصراع الاقتصادي)، والثانية متمثلة بالحزب (أي الصراع السياسي)، وبالتالي لم يسعَ الحزب لقيادة العمال المضربين. وهذا المنهج الإصلاحي في فصل السياسي عن الاقتصادي يستمر في وجوده إلى يومنا هذا ويتجلَّى على سبيل المثال في قيادات حزب العمال البريطاني المتعاقبة الرافضة لدعم الإضرابات خوفًا من الإضرار بقدراتها الانتخابية.

كتبت لكسمبورج كتيبًا في عام ١٩٠٦ بعنوان "الإضراب الجماهيري والحزب السياسي والنقابات العمالية" لفتح النقاش داخل الحزب الاشتراكي الديمقراطي حول دروس ثورة روسيا ١٩٠٥. وصفت فيه تأثير الحركة في روسيا على النحو التالي: "للمرة الأولى توقظ الثورة الروسية الحس والوعي الطبقي في ملايين وملايين وكأنها صدمة كهربية. الجماهير العمالية قد أدركت فجأة وبحدة مدى رداءة وضعهم الاجتماعي والاقتصادي الذي تحمَّلَته تلك الجماهير بصبرٍ لعقودٍ في أغلال الرأسمالية، عند ذلك بدأت عفويًا في زلزلة ومقاومة هذه الأغلال".

يُقدِّم تحليل لكسمبورج رؤيةً أساسية للثورة في عصر الجماهير، الأمر الذي لم يشهده ماركس قبل ذلك بخمسين عامًا، وإنما أشار إليه في البيان الشيوعي. وقد فهمت لكسمبورج وطرحت صيغةً نظريةً لحركة العامل العصري: "إن الإضراب الجماهيري هو التكوين الأول والطبيعي والعفوي لكل نضالٍ ثوري كبير للبروليتاريا". وقد تجلَّى ذلك عدة مرات منذ ذلك الحين - في روسيا عام ١٩١٧، وألمانيا في فترة ١٩١٨-١٩٢٣، وإيطاليا عام ١٩٢٠، والمجر عام ١٩٥٦، وفرنسا عام ١٩٣٦ ومرة أخرى عام ١٩٦٨، وإيران بين عامي ١٩٧٨-١٩٧٩، وبولندا عام ١٩٨٠، ومصر عام ٢٠١١.

عارضت لكسمبورج منهج "المحورين السياسي والاقتصادي" لقادة حزبها والنقابات العمالية على النحو التالي:

"لكن الحركة في مجملها لا تمضي في اتجاهٍ واحد، من النضال الاقتصادي إلى النضال السياسي، وإنما تمضي في الاتجاه معاكس أيضًا. فإن كل بدايةٍ جديدةٍ وكل نصر جديد للنضال السياسي يتحوَّل إلى قوةِ دفعٍ للنضال الاقتصادي، وبعد كل موجةٍ غاضبةٍ من الفعل السياسي تبقى رواسب خصبة تَنمو منها ألف نبتة من النضال الاقتصادي.

باختصار، فإن النضال الاقتصادي هو جهاز الإرسال من مركزٍ سياسي إلى آخر، والنضال السياسي هو السماد الدوري لتربة النضال الاقتصادي. والسبب والنتيجة هنا يستمران في تبادل المواقع. وهكذا فإن العاملين الاقتصادي والسياسي في فترة الإضراب الجماهيري يُشكِّلان ببساطة الجانبين المتداخلين للنضال الطبقي البروليتاري؛ فهما ليسا منفصلين ومتنافيين ومبعدين كما يقدِّمها التخطيط النظري".

إذا نظرنا للثورة المصرية البادئة في يناير ٢٠١١، فإن التظاهرات الجماهيرية التي اندلعت في القاهرة لم تأت من فراغ، بل كانت ذروة عقدٍ كامل من النضالات السياسية والاقتصادية معًا. النضالات السياسية من أجل الحقوق الديمقراطية وضد الإمبريالية تضافرت مع ضغوط الأزمة الاقتصادية العالمية لتخلق حراكًا جماهيريًا. لكن الإطاحة بالديكتاتور حسني مبارك لم تتم إلا بعد أن عزَّزَ الإضراب العام في مصر كلها من قوة متظاهري ميدان التحرير ليُدشِّن تغييرًا جذريًا لمصر.

سعت لكسمبورج لإبراز كيف أن الإضرابات الجماهيرية يمكن أن تصبح ثوريةً، ليس بأمرِ حزبٍ ما وإنما من خلال الغريزة الثورية للطبقة نفسها، ومهمة الحزب هي توجيه بوصلة هذه النضالات.

بات الحزب الاشتراكي الديمقراطي في خطر من الإخفاق في هذا الاختبار. وفي مؤتمر جينا في سبتمبر ١٩٠٥، صوَّتَ الحزب لدعم الإضرابات الجماهيرية فقط في حالاتٍ مُحدَّدة للغاية، عندما يكون بإمكان الحزب استخدام تلك الإضرابات في الدفاع عن القوى التي اكتسبها من خلال إستراتيجيته الانتخابية.

بعد عام من ذلك، قال إدوارد ديفيد، القيادي المنتمي لتيار "المراجعة" داخل الحزب الاشتراكي الديمقراطي: "انتهى الازدهار القصير للثورية الجديدة. الحزب سيكرِّس نفسه مُجدَّدًا وعلى قلبٍ واحد للاستغلال الإيجابي لقوته البرلمانية وتوسيعها". بالنسبة للمراجعين، كان الإضراب الجماهيري ومضةً غير مُوجَّهة يتمنون لو أنها اختفت سريعًا لتعود الأمور إلى طبيعتها. أما بالنسبة للكسمبورج، فقد كان تعبيرًا تلقائيًا عن وعي الطبقة العاملة الجماهيرية وسياسة أساسية للاشتراكيين الديمقراطيين.

عُرِفَت الفترة الباقية من حياة لكسمبورج بإيمانها المُطلَق بإمكانية التحرُّر الذاتي للعمال. إن فهمها العميق للمد والجزر في النضال العمالي والمُوضَّح في كتابها "الإضراب الجماهيري" يجعلها إحدى أهم المساهمين في النظرية الماركسية في القرن العشرين.

٩- القومية ترفع رأسها

في أواخر القرن التاسع عشر، قامت القوى الأوروبية، المُتمَثِّلة في بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وبلجيكا وألمانيا والبرتغال، بانتزاع بعض المناطق لحكمها واستغلالها، في ما عرف بالتدافع على أفريقيا. كان هذا الزحف الخبيث يعني إخضاع الملايين من البشر وتزايد التوترات بين الإمبراطوريات الأوروبية.

توحَّدت الدولة الألمانية فقط في ١٨٧١، وكان القيصر يمتلك عددًا صغيرًا نسبيًا من الأقاليم في أفريقيا. لكن المنافسة بين القوى الصناعية كانت تعني أن الطبقة الحاكمة كانت مُتحمِّسةً لزرع الحس القومي. فقد برزت عشرات من المنظمات القومية مثل رابطة البحرية ورابطة عموم الألمان، وقد احتوى بعضها على عضويات جماهيرية، ويمكن القول أن تلك المنظمات مجتمعةً اشتملت على ١.٥ مليون عضوًا.

كان المستشار بيرنارد فون بولوف رئيسًا للحكومة من عام ١٩٠٠ حتى ١٩٠٩ إمبرياليًا، مُعلِنًا وراغبًا في تدعيم وتوسيع الإمبراطورية الألمانية، لكن ذلك الأمر كان مُهدِّدًا بتمرُّدٍ شعبي في جنوب غرب أفريقيا الألمانية في عام ١٩٠٤، وقد تبعت تلك الفترة سنواتٌ عدة من الاضطراب. وفي الرايخستاج (البرلمان الألماني)، انضم حزب الوسط التقليدي لأحزاب المعارضة، بما فيها الحزب الاشتراكي الديمقراطي، في رفضهم لطلب المستشار بولو لتعويض المستوطنين البيض، وأيضًا رفض طلبه ٢٩ مليون مارك لقمع التمرُّد عسكريًا.

رد بولوف على رفض طلباته بحل البرلمان و"إحالة الأمر إلى الشعب" في عام ١٩٠٧ مُعلِنًا: "أن موقعنا السياسي القومي على حافة الخطر بل وموقعنا العالمي أيضًا". وقد وظَّفَ بولوف طاقات أعضاء الروابط القومية، الذين كانوا بالفعل يُنظِّمون مسيراتٍ جماهيرية ويُصدِرون الكتيبات والمنشورات من أجل تحفيز المشاعر القومية. وقد اتهم بولوف الحزب الاشتراكي الديمقراطي واصفًا إياه بـ"عدو ألمانيا"، وذمَّ أي أحزاب أخرى تعاملت معه. ويبدو أن إستراتيجية بولوف نجحت، فقد زادت قوته الانتخابية فيما ضعفت قوة الحزب الاشتراكي الديمقراطي وانخفضت حصته من المقاعد من ٨١ مقعدًا إلى ٤٣، رغم الزيادة في عدد الأصوات التي جناها. تُنسَب الخسائر إلى حدٍّ كبير إلى الدورات الثانية على مقاعد دون أغلبية حاسمة، وقد تكاتفت الأحزاب الأخرى لإبقاء الاشتراكيين بعيدًا، إذ خضعت تلك الأحزاب للدعاية المعادية للاشتراكية.

أدت هذه النتيجة إلى انقسام داخل الحزب الاشتراكي الديمقراطي. واستنتج تيار الإصلاحيين أنهم خسروا لأنهم كانوا شديدي الراديكالية. أما كاوتسكي، مُتحدِّثًا عن الجناح اليساري للحزب، فقد جادل بأن النتيجة تمثل ببساطة إشارة إلى احتدام الصراع الطبقي، إذ لم يعد ممكنًا الاعتماد على الطبقات الوسطى في التصويت للحزب ويجب أن يجري التركيز على البناء وسط الطبقة العاملة.

هذا الانقسام كان قد طلَّ بوجهه لأول مرة خلال مؤتمر الحزب في مانهايم قبل ذلك ببضعة أشهر في عام ١٩٠٦. وقد اقترح القيادي الراديكالي بالحزب كارل ليبكنخت تحرُّكًا معاديًا للعسكرة، لكن الاقتراح أُجهِضَ فورًا من جانب القيادي الحزبي أوجست بيبل. وقدم وفدٌ آخر مقترحًا يجادل بأن الحكومة الألمانية إذا أرسلت قواتها للمساعدة في دحر الثورة الروسية، فلابد أن يدعو الحزب والنقابات العمالية إلى إضرابٍ جماهيري لمنع ذلك. وقد جادل بيبل بأن حكومة

ألمانيا إذا حاربت ضد روسيا فسوف تنتعش الحمى القومية لتصيب الجماهير الألمانية، وعندها لن يتمكَّن الحزب من فعلِ شيءٍ للتأثير على الجماهير.

صَدَمَ هذا التصريح لبيبل الراديكاليين ومنهم لكسمبورج، فأين كانت إذن الأممية الثورية المُمَيِّزة للماركسية منذ البداية؟ فهذا بيبل يجادل بأن عليهم أن يتخلوا عن إخوتهم وأخواتهم الثوريين في روسيا ليتركوهم يلقون مصيرهم، وكان يعفي الحزب من أيِّ التزامٍ بالنضال من أجل قيادة الطبقة العاملة في ألمانيا.

ذهب منطق بيبل في الجدال إلى ما هو أبعد خلال المناقشات البرلمانية قبيل انتخابات ١٩٠٧. وبدلًا من شجب وإنكار الاستعمار كسياسيةٍ مُتوحِّشةٍ، وبدلًا من الحديث ضد العسكرة في الوطن وفي الخارج، جادل بأن الكولونيالية الفاشلة قد حرمت الجيش الألماني من مواردٍ قيِّمةٍ مما أضعف من قدرات الجيش على القتال بنفس الفخر الذي تميَّزَ به في الماضي. وقد أيَّد نائبٌ آخر للحزب، وهو جوستاف نوسكه، رأي بيبل مُؤكدًا أن ألمانيا لو هوجِمَت سيدافع عنها الحزب "بنفس إصرار أيٍّ من السادة في الجانب الأيمن من المجلس".

استمرت النقاشات لاحقًا في ذلك العام خلال مؤتمر الأممية في شتوتجارت. وجادل بيبل والوفد الألماني بإبقاء معاداة العسكرية خارج جدول الأعمال كقضيةٍ خاسرة، وحضرت لكسمبورج مُمَثِّلةً عن الحزب البولندي وتحدَّثَت بقوةٍ بالنيابة عن الوفدين البولندي والروسي مدافعةً عن الأممية الثورية. وقد نجحت في إدخال تعديل ينص على: "في حالة خطر اندلاع الحرب، فإن من واجب الطبقات العاملة ومُمَثِّليها البرلمانيين في الدول المتحاربة أن يقوموا بكل ما يمكن لمنع هذه الحرب بأي وسيلة يرونها فعَّالة. وإذا ما قامت الحرب بالفعل، فمن الواجب أن تلتمس الطبقة العاملة ومُمَثِّلوها نهايةً سريعةً لها وأن يسعوا بكل قوتهم لاستغلال الأزمة الاقتصادية والسياسية العنيفة الناتجة عن الحرب لاستنهاض الجماهير ومن ثَم التعجيل بإنهاء حكم الطبقة الرأسمالية".

عبَّرَت المناقشات عما هو آت، فلكسمبورج وليبكنخت والقليل مِمَّن تجرَّأوا على الحديث ضد قومية بيبل كانوا ليرجعوا لتطبيق ما نص عليه القرار بالضبط من تحويل الحرب إلى ثورة. أما نوسكه فكان ليرجع ليضطلع بدورٍ حقيرٍ في سحق الثورة.

١٠- كاوتسكي والوسط الماركسي

جدَّدَت لكسمبورج حربها على التحريفيين في الحزب الاشتراكي الديمقراطي في خطابها بمؤتمر شتوتجارت. لكن قبل عام ١٩١٠ ظهر انقسامٌ آخر داخل الحزب، وكان موجعًا للكسمبورج على الصعيد الشخصي.

في ربيع ١٩١٠، اندلعت سلسلةٌ من المظاهرات الجماهيرية في ألمانيا، من أجل الإصلاح الانتخابي، وقد تزامن ذلك مع إضراباتٍ كبيرة لعمال المناجم والبناء. وللمرة الأولى منذ عام ١٩٠٥ بدت الطبقة العاملة وكأنها تتقدَّم. وقد طرحت لكسمبورج أن يتقدَّم الحزب ليقود هذه النضالات مستخدمًا تكتيك الإضراب الجماهيري السياسي سلاحًا له. فإما أن الحركة تحتدم وإما أن تصبح مُعرَّضةً لخطر التلاشي. وقد كتبت مقالًا بجريدة "نيو زايت" تُوضِّح موقفها، لكن مُحرِّر الجريدة كارل كاوتسكي رفض نشر المقال.

كان كاوتسكي صديقًا للكسمبورج، ورفيقًا لها منذ وصولها برلين. فقد كانا متقاربَين سياسيًا وكانا بمثابة قائدَين للجناح الراديكالي بالحزب. لكن ما بدا حينها هو أن كاوتسكي يتغيَّر بشكلٍ كامل، إذ لم يتوقَّف الأمر عند رفضه مقال لكسمبورج، بل إنه قد كتب مُهاجِمًا موقفها بحدةٍ، مُجادلًا بعدم إمكانية تطوُّر الإضرابات الحالية إلى أي شيء، وأن عليهم انتظار الانتخابات التالية خلال سنتين. وبدا أنه أصبح يرى ثورةً تنمو ليس من النشاط الذاتي للعمال، كما جادل ماركس، بل من خلال النجاح الانتخابي للحزب.

منذ ذلك الحين، استغل كاوتسكي كل فرصةٍ للهجوم على لكسمبورج لتطلُّعها المُتمرِّد، لكنه استمر أيضًا في هجومه على التحريفيين داخل الحزب لرغبتهم في التعاون مع الأحزاب البرجوازية. وبالتالي أصبح لدى الحزب في ذلك الوقت ثلاثة تيارات: التحريفيون بقيادة برنشتين، والوسط الماركسي بقيادة كاوتسكي، والذي برَّرَت كلماته المُنمَّقة، عمليًا، الانحدار نحو الإصلاح، والتيار الثالث هم الراديكاليون اليساريون، بقيادة لكسمبورج وليبكنخت وزيتكن وآخرين قلائل.

عمَّقَت أزمة المغرب من الانقسامات داخل الحزب عام ١٩١١. ففي يوليو َوجَّهَت البحرية الألمانية سفينةً حربيةً إلى ميناء أغادير، بادعاء حماية المصالح الألمانية في المغرب، وأثار ذلك أزمةً دبلوماسية كبرى وحصَّنَ مواقع المُروِّجين للحرب في فرنسا وألمانيا. وأرادت الأممية الاشتراكية الدعوة لاجتماع يناقش إصدار بيان ضد التحركات الألمانية، لكن قادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي رَدُّوا بأن ذلك ليس ضروريًا، وأنه من الأفضل عدم المخاطرة بإثارة أَيَّة مشاعر مناهضةٌ للاشتراكيين، مع قُرب موعد الانتخابات.

بدأت المظاهراتُ المناهضةُ للحرب في الاندلاع في برلين ومناطق أخرى من ألمانيا، مدعومةُ بحماسٍ من جانب لكسمبورج ورفاقها، لكن قيادة الحزب لم تتجاوب مع التظاهرات بأي شكل. وبغضبٍ شديد أرسلت لكسمبورج رسالةً، تفضح فيها قيادة الحزب، لتراخِيهم في مواجهة الإمبريالية المتنامية.

منذ أزمة المغرب وصاعدًا، أصبحت المعركة ضد الإمبريالية والحرب هي المسألة الرئيسية التي شكَّلَت النقاشات داخل الحزب. ظهرت ثلاثة مواقف بخصوص ذلك: التحريفيون تشبَّثوا بفكرة أن أفضل خدمة لقضية الاشتراكية هي دعم الدولة الألمانية، وبالتالي كسب إصلاحات من خلال البرلمان. وقد أمضى نواب الحزب من هذا الجناح وقتهم في الضغط، من أجل ظروف

وأسلحة أفضل للجنود الألمان. أما كاوتسكي والوسط فجادلوا بأن الحلف المعادي للإمبريالية يمكن تكوينه مع الرأسماليين الصناعيين – عدا مصنعي السلاح – إذ لا يوجد شيئًا ليكسبوه من سباق التسلُّح وخطر الحرب. وجادل كاوتسكي أيضًا بأن ألمانيا وبريطانيا ستصبحان أفضل إذا ما توصلتا إلى اتفاق بدلًا من تهديد أرباحهما من خلال الحرب. وكان الوسط يؤيد نزع السلاح انطلاقًا من فوائده بالنسبة للرأسمالية. أما لكسمبورج والراديكاليون فقد رأوا أن سلامًا رأسماليًا ليس بسلام على الإطلاق بل أنه مجرد احتواءٍ لبذور الحرب المقبلة؛ فالإمبراطوريات الأوروبية العظمى كانت تحتك ببعضها البعض وتحرض سكانها على القومية. وكانت مهمة الثوريين هي مواجهة ذلك بالأممية والنضالات الجماهيرية لتحويل الأزمة الإمبريالية إلى حركة ثورية. وقد ساد موقف كاوتسكي داخل الحزب خلال دورة ١٩١٢-١٩١٣.

١١- التنظير حول الإمبريالية

خلال هذه السنوات من النقاش الحاد في الحزب، كانت لكسمبورج تُطوِّر فهمها للرأسمالية وعلاقتها بالاستعمار والإمبراطورية والحرب. ومنذ عام ١٩٠٧ فصاعدًا، كانت لكسمبورج تعمل كمعلمةٍ بمدرسة الحزب الاشتراكي الديمقراطي في برلين، ودرَّست الاقتصاد بحماسٍ ووضوح أسعدا طلابها ومعظمهم من العمال في العشرينيات حتى الأربعينيات من العمر. وقد بدأت كتابة كتاب "لم تنته منه" باسم "مقدمة في الاقتصاد السياسي"؛ نظرت فيه إلى أشكال المجتمع المشاعية ما قبل الرأسمالية والتي وصفها ماركس بالشيوعية البدائية والتي كانت بعض أمثلتها لا تزال قائمةً في بداية القرن العشرين. وقد أوضحت كيف أن أسلوب الحياة المتساوي والذي تميُّزه ملكية مشتركة لوسائل الإنتاج كان هو الشكل السائد للتنظيم الاجتماعي البشري لآلاف السنين. كما وصفت جيدًا كيف أن الإمبريالية الرأسمالية كانت تُدمِّر مثل هذه المجتمعات إذ كتبت:

"كان تدخُّل الحضارة الأوروبية كارثةً بكل المعاني بالنسبة للعلاقات الاجتماعية البدائية. فالغزاة الأوروبيون هم الأول الذين لا يكتفون بالإخضاع والاستغلال الاقتصادي بل ينوون الاستيلاء على وسائل الإنتاج نفسها من خلال انتشال الأرض من تحت أقدام السكان الأصليين. وبذلك تحرم الرأسمالية الأوروبية النظام الاجتماعي البدائي من قاعدته. وما يظهر بعد ذلك هو شيء أسوأ من كل قمع واستغلال، إذ تبدأ فوضى تامة وتظهر ظاهرة أوروبية محددة وهي عدم استقرار الوجود الاجتماعي. إن المقهورين مِمَّن عزلوا عن وسائلهم للإنتاج يُنظر لهم من جانب الرأسمالية الأوروبية باعتبارهم مجرد عمال وعندما يكونون مفيدين لهذه الغاية فإنهم يُحالون إلى عبيد وإن لم يكونوا مفيدين فإنهم يُبادون".

لكن ما الذي يدفع الرأسماليين للتوسُّع والاحتلال بهذا الشكل؟

أحسَّت لكسمبورج أن ماركس لم يفسر ذلك بشكل كافٍ؛ إذ أن عصر الإمبريالية قد أتى بعد وفاته. وقد حاولت لكسمبورج في عملها الأكبر (تراكم رأس المال) عام ١٩١٣ أن تشرح الدفع نحو الإمبريالية.

أشارت لكسمبورج إلى خللٍ ارتأته في المجلد الثاني من "رأس المال" لماركس. بالنسبة لماركس، كان التراكم صفةً مركزية للرأسمالية؛ ويعني هذا ببساطة لأن الرأسماليين بدلًا من استهلاك أرباحهم في شراء السلع الفخمة فإنهم يُعيدون استثمار بعض فائضهم كرأسمال، إما في شكل مصنع جديد وإما ماكينة وإما في شكل تأجير مزيد من العمال، ومن ثَم التوسع في الإنتاج. وهذا التوسُّع غير محدود مبدئيًا وتدفعه المنافسة بين الرأسماليين.

وقد جادلت لكسمبورج بأنه من المستحيل أن يتمدَّد الإنتاج "في مجتمعٍ يحتوي رأسماليين وعمال فقط"، كما في نموذج ماركس في كتابه رأس المال. فالعمال، وهم الطبقة المستغلَة تعريفًا، لن يملكوا الأجور الكافية لشراء الكمية الزائدة من السلع. فعندها ستكون أزمة من نقص الاستهلاك وسيضطر الرأسماليون إلى النظر خارجًا نحو أسواق غير رأسمالية لتحقيق أرباحهم. وبذلك فإنهم يقومون فعلًا بتصدير الرأسمالية ويستوردون المواد الخام الرخيصة ويزيدون من استقرار القوة الإمبريالية في الوطن.

بالتالي فإن التوسُّع الإمبريالي عند لكسمبورج في مناطق غير رأسمالية هو أمر ضروري للتراكم الرأسمالي، وفي الوقت نفسه يدمر تلك المناطق ويجرها إلى الرأسمالية. وهكذا في

الواقع هناك حدود مادية واقعية جدا للتوسُّع، وبمجرد أن تمتص الرأسمالية كل المناطق غير الرأسمالية؛ فإنها لابد وأن تنهار في أزمة نهائية.

انتقد ماركسيون آخرون هذا المنهج حينها مجادلين بأن لكسمبورج اتخذت النموذج المجرد في المجلد الثاني لرأس المال حرفيًا للغاية وأن وصف ماركس للتراكم إنما يشير إلى أن الرأسماليين يعتمدون على استهلاك الرأسماليين الآخرين لبضاعتهم، مثل أن يبيع أحدهم للآخر ماكينة، بقدر ما يعتمدون على بيع السلع للعمال.

إن ميل معدل الربح للانخفاض، عند تزايد التراكم بدلًا من نقص الاستهلاك، لهو أمر مركزي نظرية ماركس للأزمة.

هناك دراساتٌ ماركسية أخرى - وأكثر تأثيرًا - عن الإمبريالية. مثلا يُعتَبَر كتاب نيقولاي بوخارين "الإمبريالية والاقتصاد العالمي" عملًا كلاسيكيًا حول هذا الموضوع، إذ يوضح كيف أن الإمبريالية مقيَّدة بتركز وتمركز رأس المال بمرور الوقت، مما يزيد من الترابط بين رأس المال والدولة القومية ويقود إلى توسُّع رأس المال خارجيًا.

إن ما اشترك بخصوصه بوخارين ولكسمبورج هو إصرارهما على أن الإمبريالية ليست مجرد نقطة على وجه الرأسمالية الصافي أو سياسة خاطئة ينتهجها حزبٌ معين؛ وإنما هي أمر جوهري تمامًا للنظام ولا يمكن فهمه بمعزل عن الرأسمالية. وقد باءت محاولات كاوتسكي لإصلاح العسكرة بالفشل، وأصبحت المعركة ضد الحرب والإمبريالية هي قلب المعركة ضد الرأسمالية.

١٢- العد التنازلي نحو الحرب

لم تدع لكسمبورج ذلك الدعم الذي تلقاه كاوتسكي في الحزب يثني عزمها عن المعركة ضد الحرب. وفي ديسمبر ١٩١٣، أسست جريدة جديدة وهي "مراسلة الاشتراكية الديمقراطية"، وذلك بمصاحبة اثنين من الراديكاليين هما فرانز ميرنج وجوليان مارشلويسكي-كارسكي. وقد استخدموا الجريدة للتدخُّل في مناقشات الحزب ونشر وجهات نظرهم المعادية للحرب. وسرعان ما صارت لكسمبورج وحملتها تحت أعين السلطات.

وفي ٢٠ فبراير ١٩١٤ اعتُقِلَت بتهمة تحريض الجنود على التمرُّد. وترجع التهمة إلى خطبة ألقته لكسمبورج في سبتمبر ١٩١٣ قالت فيها: "إذا كانوا يتوقَّعون منا أن نحمل أسلحة القتل ضد إخواننا الفرنسيين أو إخواننا من أي بلدٍ آخر، فدعونا نعلن رفضنا ونخبرهم أننا لن نفعل ذلك". وقد ألقت كلمةً أخرى في محاكمتها استنكرت فيه العسكرية وأوضحت الموقف الثوري من الحرب. وقد طالب المدعي العام سجنها لمدة عام واحد وتنفيذ الحكم فورًا، وكانت إجابة لكسمبورج على النحو التالي:

"كلمة مختصرة عن الهجوم الشائن الذي شُنَّ تجاهي، وهو هجوم يخزي من قام به. إن المدعي العام قال – وأنا أذكر كلماته بدقة – أنه يطالب باعتقالي فورًا لأنه من المفهوم أن المتهمة إذا تُرِكَت فإنها ستهرب؛ وبمعنى آخر كأنه يقول: لو أنني (النائب العام؛ أي يقصد نفسه) حُكِمَ عليّ بالسجن عامًا فإنني سأحاول الهرب. وأنا يا سيدي أصدقك؛ فأنت ستهرب أما الاشتراكي الديمقراطي فلن يفعل، بل سيبقى بنضاله ويسخر من عقابكم. والآن اعتقلوني".

حُكِمَ عليها بالسجن عامًا لكنها لم تُعتَقَل فورًا وانطلقت في الحال في جولةٍ من الخطب للعديد من الاجتماعات الجماهيرية للعمال الغاضبين من الحكم القاسي الواقع عليها. وقد تمكَّنت من مواصلة عملها لشهور بانتظار إتمام إجراءات الاستئناف ولم يُنفَّذ الحكم حتى عام ١٩١٥ حين سُجِنَت فعليًا. وفي هذه الأثناء كان الصراع الطبقي يحتدم والحس المعادي للحرب يتنامى لتكسب لكسمبورج جولةً جديدة في الحياة؛ إذ وجدت محاولاتها لإثارة الإضرابات الجماهيرية صدىً لها، فقد كان العمال يحتشدون لحضور اجتماعاتها ولم يسبق أن كان لكلماتها مثل هذا الصدى. لكن الأمل الجديد الذي أحسَّته لكسمبورج كان على وشك أن ينطفئ فجأة وبشكل صادم.

ظلَّ النشاط المعادي للحرب منتشرًا حتى بعد مقتل الأمير الملكي النمساوي المجري فرانز فرديناند على يد قومي صربي في يونيو ١٩١٤. إذ نظمت لكسمبورج والحزب الاشتراكي الديمقراطي مؤتمرات جماهيرية وأصدرت مراكز الحزب بيانات تؤكِّد موقف الحزب ضد الحرب حتى نهاية شهر يوليو ومنها: "إن البروليتارية الألمانية الواعية طبقيا، باسم الإنسانية والحضارة، تصعّد معارضتها ضد النشاط الإجرامي لدعاة الحرب".

إلا أن الحرب أُعلِنت في بداية أغسطس وانهارت الأممية الاشتراكية. فأولًا، أعلنت النمسا الحرب على صربيا، وقد تحدَّث الاشتراكي النمساوي أدلر عن قلة حيلتهم التامة في مواجهة الحماسة القومية. ثم أعلنت روسيا الحرب ضد النمسا، وألمانيا أعلنت حربا ضد روسيا. وفي الوقت الذي ترابط البلاشفة وبعض الأحزاب الاشتراكية الصغيرة في صربيا وبلغاريا وبولندا ضد الحرب الإمبريالية، كان نواب الحزب الاشتراكي الديمقراطي في البرلمان يصوِّتون لصالح الحرب في الرابع من أغسطس. وخلال مناقشات الحزب قبيل التصويت، عارض ١٥ نائبًا

الحرب من أصل ١١١ نائبًا؛ كان ليبكنخت من بين المعارضين. وقد رُفِضَ السماح لهم بتسجيل موقف للأقلية واتفق على عدم شق الصف الحزبي.

كان لأفعال الحزب الاشتراكي الديمقراطي أسوأ تأثير على الاشتراكيين في كل مكان؛ فقد كان رغم كل شيء الحزب الأكبر والأقوى والأكثر تنظيمًا في الأممية، وكان وريثًا لتراث ماركس وإنجلز. فقد خان الحزب كل ما ادَّعى النضال من أجله، وبدون الحزب كانت الأممية لا تعنى شيئًا.

رفض لينين أول الأمر تصديق ما أُخبر به عن الحزب، أما لكسمبورج فقد تأثَّرت بشدة لكنها سرعان ما استجمعت فهمها لما كان يجب فعله، وفي الليلة عينها عقدت اجتماعًا في منزلها في برلين مع عددٍ قليل من الثوريين منهم ميهرنج وكارسكي وبدعم من كلارا زيتكن في شتوتجارت؛ وقد اتفقوا على تصعيد النضال ضد الحرب وضد حزبهم نفسه. وفي ديسمبر ١٩١٤ صوَّت ليبكنخت ضد اعتمادات الحرب وانضم إليهم، وكانت هذه بداية المجموعة التي أصبحت في ما بعد عصبة سبارتكوس.

قام كاوتسكي ببعض المراوغات النظرية لتبرير موقف الحزب، مدعيًا أن هذه الحرب تختلف عن غيرها. وسلَّط الضوءَ على انهيار الأممية مدعيًا أنها: "ليست سلاحًا فعالًا في وقت الحرب، فهي أداة سلم"، وهو بذلك يجعل أقصى احتجاج للحزب ضد الحرب التي يذبح فيها العمال بعضهم مجرد مواساةٍ فارغة يربت فيها الحزب على ظهر العمال.

وللمرة الأولى يرى لينين ما أصبح عليه كاوتسكي فيقول: "كانت روزا لكسمبورج على حق؛ فقد أدركت منذ وقتٍ طويل أن كاوتسكي كان مُنَظِّرًا انتهازيًا يخدم أغلبية الحزب والانتهازية باختصار. وليس أخطر ولا أخبث أثرًا على الاستقلال الفكري للبروليتاريا من إرضاء الذات والنفاق اللذين لدى كاوتسكي الذي يعتم على كل شيء ويخمد الوعي الناهض للعمال بالسفسطة والتزييف".

أسَّسَت لكسمبورج جريدة "الأممية" في يناير ١٩١٥. وفي عددها الأول والوحيد، هاجمت كاوتسكي، كاتبةً: "إن ما قام به كاوتسكي هو تعديل المناشدة العالمية التاريخية الواردة بالبيان الشيوعي لتصبح: يا عمال العالم، اتحدوا في السلم ولكن اذبحوا بعضكم في الحرب!".

١٣- المقاومة وقت الحرب

سُجِنَت لكسمبورج في فبراير ١٩١٥ في حالةٍ صحية سيئة، إذ كانت ترتب للرحيل عندما تم اختطافها فجأة وأُخذت إلى سجن النساء في برلين. وقد بقيت في حبسها معظم فترة الحرب باستثناء فترات قصيرة من الحرية. ولم تنزعج من كونها في السجن فقد تعاملت مع الموقف سابقًا، لكنها هذه المرة كانت تعلم مدى الحاجة لقيادتها خارج السجن. فقد كانت مجموعتها تعمل مع بعض أعضاء الوسط الماركسي والذين لم يكونوا على استعدادٍ لمجاراة كاوتسكي في تبريره للحرب لكن المعارضة لم تكن قادرةً على شن هجومها.

كتبت لكسمبورج كتيبًا بعنوان "أزمة الاشتراكية الديمقراطية" وهُرِّبَ خارج السجن قبل إبريل ١٩١٥. وقد نُشر الكتيب لاحقًا ووُزِّعَ بشكلٍ غير قانوني تحت اسم مستعار هو "جونيوس"، وأصبح معروفًا بكتيب جونيوس. وفيه تصف لكسمبورج أهوال الحرب على النحو الآتي: "مخزية، لا شرف فيها، تخوض في الدماء وتقطر حقارة: هكذا يقف المجتمع الرأسمالي. ليس كما نراه عادةً وهو يقوم بأدوار السلام والصلاح والانضباط والفلسفة والأخلاق؛ وإنما كوحشٍ هادر معربد في الفوضى وهواءٍ موبوءٍ يُدمِّر الثقافة والإنسانية لتنكشف كل بشاعته".

كان كتيب جونيوس هجومًا حادًا أيضًا على الحزب الاشتراكي الديمقراطي لفشله في إخماد حراك الثوريين والطبقة العاملة، فلم تكن اللحظة لحظة سكون وانتظار حتى تنتهي الحرب، بل كانت مفترق طرق بالنسبة للإنسانية: "إما انتصار الإمبريالية وتدمير كل الثقافة مثلما حدث في روما القديمة من نزحٍ للسكان وخراب وانحطاط وانتشار للموت، وإما انتصار الاشتراكية وهي النضال الواعي للبروليتاريا الأممية ضد الإمبريالية وضد أساليبها وضد الحرب. هذه هي معضلة تاريخ العالم بموازينه المختلة؛ وإنه لاختيار لا مفر منه ينتظر البروليتاريا لتحسم قرارها".

قد تكون العبارة القائلة: "إما الاشتراكية أو البربرية" هي أشهر عبارات لكسمبورج؛ إذ تنفذ العبارة نحو قلب منهج لكسمبورج السياسي لتتحدث إلينا اليوم في عالم التغير المناخي والأسلحة النووية.

ليست الماركسية الثورية حتميةً، ولكنها تضع الفعل الواعي للجماهير في قلب كل شيء. فما يُحدِّد المستقبل هو اختيارات البشر وليس "التاريخ": "لن يتوقف هذا الجنون، ولن ينحسر هذا الكابوس الدموي حتى ينهض عمال ألمانيا وفرنسا وروسيا وإنجلترا من غفلتهم لتترابط أيديهم في أخوة متخلصين من جوقة مثيري الحرب؛ لتقضي صيحة العمال العظيمة على صرخة الضبع الرأسمالي.. يا بروليتاريا العالم، اتحدوا".

قبل نهاية عام ١٩١٥ كانت لقت الدعوة صداها مع تزايد عدد القتلى وتبدُّد الآمال في نصرٍ سريع. وفي ديسمبر، انضم أخيرًا عشرون نائبًا بالحزب الاشتراكي الديمقراطي إلى ليبكنخت في التصويت ضد اعتمادات جديدة للحرب. ومثلما كتب أحد أعضاء الحزب: "إن الجماهير غاضبة حيال الحرب وخصوصًا حيال التكلفة المرتفعة للمعيشة". أُطلِقَ سراح لكسمبورج في فبراير ١٩١٦ لتلتقيها ألف امرأة مؤيدة جلبوا لها الهدايا وشدَّوا على يدها مصافحةً. وعلى الفور بدأت لكسمبورج عملها إلى جانب ليبكنخت تنظيمًا وتحريضًا.

في مظاهرة الأول من مايو ١٩١٦ في برلين، ألقى ليبكنخت خطابًا ناريًا، أنهاه قائلًا: "لتسقط الحرب ولتسقط الحكومة". اعتُقِلَ على الفور وسُجِنَ بانتظار محاكمته. شكَّلَ هذا الحدث منعطف

مهم، فقد تظاهر الآلاف على خلفية حبس ليبكنخت. وعند بداية محاكمته انطلقت مظاهرات جماهيرية في برلين، ولما حُكِمَ عليه بالسجن لمدة عامين ونصف مع الأشغال الشاقة والتي زيدت لاحقا إلى أربع سنوات في محاكمة عسكرية، أضرب ٥٥ ألفًا من عمال الذخيرة عن العمل في إضراب نظّمه "النقابيون الثوريون"، وهي شبكة مناضلين صناعيين. بدأ عمال ألمانيا في النهوض.

١٤- ثورة في روسيا

كان أثر الحرب في روسيا أكبر كثيرًا من أثرها في باقي الأمم. النقص في المواد الأساسية وظروف العمل المريعة أدت لإضرابات في بداية عام ١٩١٧. وسرعان ما انتشرت تلك الإضرابات، وفي سياقها أعاد العمال الروح للسوفييتات، أي مجالس العمال والتي كان أول ظهور لها في ثورة عام ١٩٠٥. وفي غضون أسبوع تنحى القيصر المكروه عن العرش وتم تشكيل حكومة مؤقتة وعدت باقتراع عام.

عادت لكسمبورج إلى السجن دون محاكمة في يوليو ١٩١٦، لكنها تابعت الأحداث عن قرب بقدر ما استطاعت رغم أنها اضطرت للاعتماد على الصحف التي أمرتها السلطات بأن "كبت أي تفسير أو مدح لعمل الثوار في روسيا". وقد رحَّبَت لكسمبورج بالثورة وكتبت لمجموعة سبارتكوس في مايو ١٩١٧: "لمدة ثلاث سنوات، بدت أوروبا كغرفة عفنة تكاد تخنق ساكنيها. اما الآن ففتحت نافذة ليهب هواء جديد منعش فيتنشَّقه كل من في الغرفة بعمق وحرية".

لكن لكسمبورج فهمت أيضًا أن الطبقة العاملة في روسيا المترددة لا تقدر أن تفوز منفردة:

> "هناك ضمان أوحد جاد في مقابل هذه المخاوف العادية حول مستقبل الثورة الروسية: وهو نهوض البروليتارية الألمانية وانتزاع العمال والجنود الألمان لموقع السلطة في بلادهم ونضال الجماهير الألمانية الثوري من أجل السلام. فإنه بفعل العمال والجنود الألمان سيتحقق السلام فورًا ويرتكز على أرضٍ صلبة.
>
> وهكذا فإن مسألة السلام في الواقع ترتبط بالتطور الراديكالي الدائم للثورة الروسية؛ غير أن هذا التطور مقرون هو الآخر النضالات الثورية الموازية من أجل السلام في فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وخصوصا ألمانيا".

تطوَّرت الثورة الروسية في سياق عام ١٩١٧، وذلك مع تحدي المجالس العمالية لسلطة الحكومة المؤقتة ومع الإضرابات والمظاهرات التي تفجرت في الصيف. وقاد البلاشفة في أكتوبر انتفاضة تحت شعار "كل السلطة للسوفيات" وسقطت الحكومة المؤقتة.

كتبت لكسمبورج من محبسها رسالةً لكلارا زيتكن تقول فيها: "إن الأحداث الروسية لهي من العظمة والمأساة بمكان؛ لينين وأنصاره لن يقدروا طبعًا على كسب النزاع ضد الفوضى العارمة لكن محاولتهم في حد ذاتها هي عمل رائع في تاريخ العالم وعلامة فارقة". وقد أحزنها عدم تجاوب العمال الألمان وخصوصًا قياداتهم في الحزب الاشتراكي الديمقراطي، ورفضت بشدة نظرة كاوتسكي وآخرون حينها ومفادها أن الثورة سابقة لأوانها وأن روسيا متأخرة جدًا بالنسبة لثورة اشتراكية. أما بالنسبة للكسمبورج فقد كان المفتاح هو امتداد الثورة إلى ألمانيا.

كتبت لكسمبورج إلى لويز كاوتسكي: "هل أنت سعيدة حيال الروس؟ بالطبع لن يستطيعوا النجاة من الثورة المضادة وذلك ليس بسبب الإحصاءات التي تشير إلى تراجع التطوُّر الاقتصادي في روسيا مثلما استنبط زوجك النابه؛ ولكن بسبب أن الاشتراكية الديمقراطية فائقة التطور في الغرب يمثلها كلاب جبناء سيقفون متفرجين بهدوء بينما يُهدَر دم الروس. لكن سقوطًا مثل ذلك أفضل من العيش المزيف في وطن الأسلاف. إنه عمل تاريخي عالمي لن تختفي آثاره بعد عصورٍ من الآن".

رأت لكسمبورج أن واجبها هو تحليل الأحداث في روسيا والاستفادة من الدروس التي ظهرت. وفي سبتمبر ١٩١٨؛ كتبت كتيبًا بعنوان "الثورة الروسية" انتقدت فيه البلاشفة لفقدانهم الديمقراطية وهو الأمر الذي رأته مشكلة مستقبلية. ولم ينته الكتيب ولم يصدر في حياتها؛ لكنه استُخدِمَ ضد لينين كدليلٍ على الفجوة بين لكسمبورج والبلشفية. وفي الحقيقة أن لكسمبورج أشادت بالبلاشفة ودورهم على النحو التالي: "إن حزب لينين هو الحزب الوحيد الذي أدرك تفويض وواجب الحزب الثوري الحقيقي. فإن الحزب الذي يعي كيف يقود وكيف يطوِّر الأمور هو الذي يكسب التأييد في الأوقات العاصفة".

كان لها رغم ذلك أربعة مواضع مُحدَّدة للنقد وهي: مسألة الأرض، والمسألة القومية، والجمعية التأسيسية، والحريات السياسية.

جادلت لكسمبورج بأن سياسة البلاشفة في دعوتهم للفلاحين للاستيلاء على الأرض وتقسيمها فيما بينهم بدلًا من تأميمها هي سياسية ستُحدِث مشكلاتٍ نتيجة تعزيز الملكية الخاصة. وقد سبَّبَ ذلك مشكلةً فعلًا، لكن لم يكن لدى البلاشفة بديلٌ حقيقي لكسب الثورة بطبقةٍ عاملة صغيرة الحجم كان لابد وأن يكسبوا الفلاحين لصفهم. لولا هذه السياسة لما كان هناك ثورة لتناقش. وكانت سياسة البلاشفة أكثر ديمقراطية من التأميم الجبري الذي اقترحته لكسمبورج.

كما انتقدت شعارهم حول تقرير المصير لكل شعب الإمبراطورية الروسية. وبدلًا من ذلك رأت لكسمبورج ضرورة دعوتهم لوحدة ثورية للإمبراطورية تحت سيطرة السوفييت. لكن لينين فهم أن إجبار أهل المشرق الروسي، المضطهدين مسبقًا من جانب قيصر، على الانضمام لسلطة السوفييت لن يُفضي إلا إلى إبعادهم نحو القومية. فالسبيل الأفضل لضمان أقصى وحدة كان تقديم حق أصيل في تقرير المصير والذي بدوره سيجلب التأييد الثوري؛ وهذا موقف أكثر ديمقراطية، فأممية لكسمبورج المجردة كانت لتصبح كارثية.

أشارت لكسمبورج أيضًا إلى دعوة البلاشفة لجمعيةٍ تأسيسية حتى تُلغى ما أن يصلوا للسلطة. واقترحت حكمًا مشتركًا بين السوفييتات والجمعية التأسيسية. لكن بالنسبة للبلاشفة، كانت السوفييتات هي أرفع صيغ الديمقراطية. فقد كانت كيانات مُشكّلة من ممثلي العمال ومنتخبة ديمقراطيا وأكثر حساسية بأحوال الجماهير وضرورات المراوغة النضالية. اما الجمعية التأسيسية فكانت تمثل الديمقراطية البرجوازية، وهي شكل محدود للديمقراطية لا تتحدى سلطة الرأسماليين على الاقتصاد. وقد أدركت لكسمبورج ذلك بعد شهرين فقط عندما كانت في خضم ثورتها في نوفمبر ١٩١٨: "أن نلجأ إلى اللجنة الوطنية اليوم لهي عودة واعية أو غير واعية بثورتنا إلى مرحلة تاريخية من الثورات البرجوازية، وأي من يدافع عن ذلك فهو عميل سري للبرجوازية أو متحدث بغير وعي نيابة عن إيديولوجية البرجوازية الصغيرة. واليوم ليست المسألة هي الديمقراطية أو الديكتاتورية، بل المسألة هي ما طرحه التاريخ على جدول الأعمال: إما الديمقراطية البرجوازية أو الديمقراطية الاشتراكية؟. فديكتاتورية البروليتارية هي ديمقراطية بالمعنى الاشتراكي".

إن الإيمان بالتحرر الذاتي للطبقة العاملة كان في قلب نقد لكسمبورج. وقد اضطرت الدولة السوفييتية أن تتنازل عن قدرٍ كبير من الأرض وبعض الموارد والصناعات الرئيسة للإمبريالية الألمانية بعد معاهدة بريست-ليتوفسك وبعد بداية الحرب الأهلية. وإزاء ذلك، خشيت لكسمبورج أن يؤدي تمركز البلاشفة إلى إعاقة الديمقراطية وإلى الديكتاتورية، ليس ديكتاتورية البروليتارية وإنما ديكتاتورية الحزب. ورغم ذلك فهمت القيود الخارجية على لينين والبلاشفة إذ قالت: "إن كل ما يحدث في روسيا مفهوم ويمثل سلسلة لا مفر منها من النتائج والأسباب والتي تبدأ وتنتهي من إخفاق البروليتاريا الألمانية واحتلال الإمبريالية الألمانية لروسيا. ونكون نطالب بشيء يفوق

قدرة البشر من لينين ورفاقه إذا توقعنا منهم في ظل هذه الظروف أن يستحضروا أفضل ديمقراطية وأبرز نموذج لديكتاتورية البروليتارية وأزهى اقتصاد اشتراكي. إنهم بعزيمة وقفتهم الثورية وقوة فعلهم المثالية وإخلاصهم الصلب للاشتراكية الأممية قد قدموا كل ما يمكن من إسهام في ظل هذه الظروف البالغة الصعوبة".

إن مفتاح حل مشكلات الثورة الرئيسية كان يكمن في نشر النضال خارج روسيا.

١٥- ثورة في ألمانيا

في أكتوبر ونوفمبر من عام ١٩١٨، كانت الحرب تدور على نحوٍ صعبٍ بالنسبة لألمانيا، لكن الجنرالات رفضوا قبول ذلك. بدأت الإضرابات السياسية ضدَ الحرب تندفع نحو مصانع الذخيرة ليتبعها تمرد في قاعدة كييل البحرية. لم تعرف الحكومة كيف تتجاوب وانتشر التمرد، وظهرت مجالس الجنود في المقدمة وتبعتها مجالس العمال في أرجاء البلد، وهكذا بدأت الثورة الألمانية.

لم تشأ الطبقة الحاكمة القديمة أن تترك السلطة بسهولة وقد عرف هؤلاء كيف يبقون عليها. فأثناء الحرب، تعاون الحزب الاشتراكي الديمقراطي مع الأحزاب الحاكمة وقام بعمله باسم الوحدة القومية، وقد أملت الطبقة الحاكمة أن يستطيع الحزب الاشتراكي الديمقراطي إنقاذها. كان فريدريش إيبرت زعيما للحزب، وقد أخبر المستشار الأمير ماكس "أنه إن لم يتخلَ قيصر عن عرشه، فإن الثورة أمر لا مفر منه. لكني لا صلة لي بذلك، فأنا أكرهها كالخطيئة".

اندلعت الثورة إلى برلين في التاسع من نوفمبر من خلال إضراب عام. وسلّم الأمير ماكس المستشارية لإيبرت آملًا أن ذلك سيهدِّئ الثورة؛ هربت الملكية وأُعلِنَت الجمهورية الألمانية من خلال عضو الحزب الاشتراكي الديمقراطي شديمان. وعلى بعد شوارع قليلة، كان ليبكنخت يعلن جمهورية اشتراكية.

كانت تلك هي المشكلة المركزية للثورة الألمانية؛ الحزب الاشتراكي الديمقراطي الذي كان لا يزال حزبًا عماليًا ملتزما بالاشتراكية قولًا، شارك في الحكومة لوضع حدٍّ للثورة. رغم ذلك حافظ الحزب على نفوذه لدى غالبية العمال والادعاء أنه إلى جانبهم. أثناء الحرب انشق الجناح الوسطي عن الحزب الاشتراكي الديمقراطي مُكوِّنًا الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل والذي انضمت له عصبة سبارتكوس. لكن في الواقع كان المستقلون منقسمون وكانت عصبة سبارتكوس صغيرة وضعيفة.

وهكذا فإنه في الوقت الذي دعت فيه لكسمبورج – المُحرَّرة من السجن بفعل الثورة – ودعا أيضًا ليبكنخت إلى ثورةٍ اشتراكية حقيقية، كان إيبرت يُشكِّل حكومةً "اشتراكية ثورية" من أعضاء الحزبين الاشتراكي الديمقراطي والمستقل بهدف معلن يوافق الأغراض العسكرية الألمانية وهو قمع الثورة بالقوة.

برغم ذلك كانت هناك حالة من ازدواج السلطة لمدة أسابيع قليلة، إذ كان كلٌ من المجالس العمالية وحكومة إيبيرت تديران ألمانيا. وقد أصدر السبارتكيون (نسبة لعصبة إسبارتاكوس) جريدة جديدة وهي "بالراية الحمراء" في ١٨ نوفمبر. وقد حذَرَت لكسمبورج في مقالها من أهداف إيبيرت: "تدعو الحكومة الحالية لتشكيل جمعية تأسيسية لتخلق ثقلًا برجوازيًا في مقابل مجالس العمال والجنود، وبتلك المناورة توضَع الثورة على مسار الثورة البرجوازية الخالصة واستبعاد الأهداف الاشتراكية للثورة". لكن لكسمبورج والثوريين لم يكن لديهم ثقلهم المضاد الخاص بهم، فلم تكن هناك منظمةٌ جادةٌ قادرةٌ على قيادة الثورة لما بعد الجمهورية.

عقدت عصبة سبارتكوس مؤتمرًا لتأسيس الحزب الشيوعي الألماني في ديسمبر ١٩١٨، وانضمت لهم مجموعة تسمى "الراديكاليون اليساريون"، وانضم لهم أيضًا نشطاءٌ شباب آخرون من أنحاء ألمانيا كانوا قد انخرطوا في الثورة.

وقد بدا الضعف واضحًا على الفور. فكانت من أولى المسائل التي نوقشت هي مسألة المشاركة في انتخابات الجمعية الوطنية. فبينما عارض الشيوعيون الجمعية مبدئيًا، جادلت لكسمبورج بضرورة مشاركتهم لشجب الجمعية نفسها، إذ قالت: "لحشد الجماهير ضد الجمعية الوطنية ولندعوهم بالنضال الحاد ضدها، لابد أن نستخدم الانتخابات ومنصة الجمعية الوطنية نفسها".

وقد وافقها كل الأعضاء القياديين الآخرين، لكن الأعضاء الشباب، ظنًا منهم بأن الثورة على وشك الانتصار، لم يروا الغاية من المشاركة في انتخابات كانوا يعارضونها؛ هكذا كانت الحركة مُشتَّتة، ورُفض اقتراح لكسمبورج، وكان ذلك دليلًا لها على ضرورة التحذير من نفاذ الصبر والأعمال المتهورة.

١٦- ثورة مضادة

في السابع من ديسمبر، أُلقِيَ القبضُ على ليبكنخت في مكتبه وكان ليؤخذ لولا تدخل إيكهورن الثوري رئيس شرطة برلين والعضو المستقل بالحزب الاشتراكي الديمقراطي. وقد كانت محاولة الاختطاف جزءًا من مؤامرة اغتيال على يد مجموعة من المرتزقة قام بتأجيرها القائد العسكري لبرلين وهو أيضًا عضو بالحزب الاشتراكي الديمقراطي. وكانت تعليماتهم هي "التعقُّب والإيقاع بقيادات عصبة سبارتكوس ليلًا نهارًا لمنعهم من التحريض والعمل التنظيمي". منذ ذلك الوقت ولكسمبورج ورفاقها اضطروا للعيش كالمطاردين. أقامت لكسمبورج بفندق مختلف كل ليلة باسم مستعار لتتركه في الصباح الباكر لتجنُّبِ الزوار غير المرغوبين.

كان الجنرالات يُشكِّلون فرقًا شبه عسكرية من الجنود الناقمين العائدين من الجبهة وكانوا يُحرَضون بحماسةٍ مضادة للثورة. أُسنِدَت وزارة الدفاع إلى جوستاف نوسكه من حكومة الحزب الاشتراكي الديمقراطي، وكان قائدًا أعلى لهذه القوات المعروفة باسم "فرايكوربس" (أي الفيلق الحر) كانوا مُصمِّمين على السير في برلين لسحق الشيوعيين والثورة بعد إغرائهم للخروج في الشوارع.

في ٤ يناير ١٩١٩، فُصِلَ إيكهورن لاتهامه زيفًا بالاختلاس، وأثار ذلك غضبًا حيث كان يعتبر رجل ثورة ونزاهة، فقامت مظاهرة جماهيرية دعمًا لإيكهورن في ٥ يناير. شجَّعَت هذه الحالة كلًا من ليبكنخت والنقابيين الثوريين لإعلان لجنة ثورية بهدف انتزاع السلطة في برلين.

كان ذلك خطًا حاسمًا؛ فالعمال المستعدين للانتفاضة كانوا يُمثِّلون أقلية - أما الأغلبية فكانت ما زالت لديها أوهام حول الديمقراطية البرجوازية - وقد نص البرنامج الشيوعي تحديدًا على أنه لابد من كسب غالبية العمال للاستيلاء على السلطة. وقد اتخذ ليبكنخت القرار دون الرجوع لباقي الحزب الشيوعي. وحينما سمعت بذلك لكسمبورج، تشاجرت مع ليبكنخت وقالت له مُوبِّخةً إياه: "هل هذا برنامجنا يا كارل؟". لكنها لم تستطع إهمال الحركة عندما قامت؛ فقد نادت بالدفاع المسلح والنشط عن الثورة برغم عدم وجود وسائل لذلك. أما اللجنة الثورية، فلم تكن قادرة على قيادة العمال الذين تشجَّعوا على نزول الشوارع واحتلال البنايات في برلين؛ فتردَّدت اللجنة، درست إمكانية التفاوض مع إيبريت، فيما كان مؤيديها متحصنين في البنايات في انتظار التوجيهات.

في ١١ يناير؛ حشد إيبيرت ونوسكه قوات الفرايكوربس لاستعادة برلين بالقوة، وانطلقت موجة ذبح وإرهاب دامت ثلاثة أيام قتل خلالها آلاف العمال؛ فقد كانت الثورة المضادة في حالة هجوم.

نُصحت لكسمبورج وغيرها من قيادات مجموعة سبارتكوس بمغادرة المدينة حفاظا على سلامتهم لكنهم رفضوا؛ إذ لم يكن في مقدرتهم التخلي عن العمال وقت الهزيمة. أخيرا أخذت مجموعة من القوات الحرة لكسمبورج من مكان اختبائها وقتلوها إلى جانب كارل ليبكنخت وألقوا بجثتها في القناة.

"إن الخبيثة العجوز لا تستحق أفضل من ذلك" قالها الضابط فوجل المسؤول عن مقتل لكسمبورج لتعبر مقولته عن كراهية الفرايكوربس لكل ما مثلته روزا لكسمبورج.

قبيل وفاتها، تمكَّنت لكسمبورج من كتابة مقالٍ أخير بعنوان "يسود النظام في برلين" وقد نُشر في جريدة الراية الحمراء في ١٤ يناير، وفيه حاولت لكسمبورج شرح أسباب إخفاق الانتفاضة للعمال وكيفية النهوض ثانية؛ فكتبت:

"أخفقت القيادة. لكن القيادة يمكن ويجب أن تُخلق ثانية بيد الجماهير ومن الجماهير. فالجماهير هي العامل الحاسم؛ إذ أنها الصخرة التي عليها يُبنى النصر النهائي للثورة. يسود النظام في برلين! أيها الأذناب الأغبياء! إن نظامكم مبني على الرمال وستنهض الثورة بنفسها ثانية وبقوة وستنادي فوق رعبكم منشدة: كنت وأكون وسأكون".

١٧- الإرث

قامت الثورة الألمانية ثانية لعدة مرات خلال السنوات الأربعة التالية، لكن الحزب الشيوعي غير المخضرم والفاقد لعدد من أفضل قياداته لم يكن قادرا على توفير القيادة الضرورية للتغلب على الطبقة الحاكمة. وقبل نهاية عام ١٩٢٣، كانت اللحظة الثورية قد انقضت، وكانت عواقب ذلك الإخفاق هي الأسوأ على الإطلاق. فالفرايكوربس التي قتلت لكسمبورج هي التي شكلت بذور عصابات هتلر؛ أما الاشتراكيون الديمقراطيون الذين أعدوهم (أي الفرايكوربس) فماتوا في معسكرات الاعتقال تحت حكم هتلر. فإنذار لكسمبورج بالبربرية أو الاشتراكية قد تحقق بمعناه السيئ؛ فالأمل في الاشتراكية بألمانيا قد تحطم، إلا أن القوات التي حطمت هذا الأمل لم تكن لتروَض. وقد شهد العقدان التاليان أسوأ همجيةٍ عرفتها الإنسانية حتى الآن.

إن إخفاق الثورة الألمانية ترك الروس محاصرين. وقبل أواخر العشرينات من القرن العشرين، تسلم ستالين زمام الأمور ليخنق دولة العمال الوليدة. فقد مات لينين في ١٩٢٤ وعومِلَ كمعبود؛ الأمر الذي كان ليرعب لينين نفسه. وقد هوجمت لكسمبورج بعد وفاته لجدالاتها معه، لتتحوَّل من شهيدةٍ إلى عدوةٍ للبلاشفة وتُدفن أعمالها.

كشف اليسار الجديد في الستينيات عن أعمال لكسمبورج ثانيةً كماركسيةٍ غير مُشوَّهة بارتباط بالاتحاد السوفييتي؛ فيما استلهمها المنشقون في ألمانيا الشرقية. وقد وجدت فيها النسويات امرأة ثورية قوية ومُنَظِّرة رغم هجوم البعض عليها لقلة ما كتبته حول قضية المرأة. والآن هناك عودة للاهتمام من خلال مؤتمرات منتظمة وكتب وجمع جديد لكتاباتها.

إن عالمنا لهو عالم كانت لكسمبورج لتدركه؛ مناطق كاملة مجتاحة بفعل حروب إمبريالية تخلف فقرًا عميقًا في الجنوب وطبقة عاملة تتحمل تكلفة مرض الرأسمالية المزمن وأحزاب إصلاحية لا تبغي سوى الإبقاء على النظام. لكن في الوقت نفسه، نحن نعيش عصرا جديدا من الإضرابات الجماهيرية في الأرجنتين وبوليفيا وفنزويلا في أوائل الألفية واليونان وإسبانيا والربيع العربي في ٢٠١١.
كتبت زيتكن عن لكسمبورج: "كانت السيف الحاد واللهيب الحي للثورة".

وحتى الآن تتمتَّع كتابات روزا لكسمبورج ونموذج حياتها نفس الوهج الذي كان لها منذ قرنٍ مضى.